

الله تعالى منفردا به لم يجعل فيه أمراً ولا نهياً لا يعذب عليه، لأنه لم يجعل للعبد مدخلا فيه بشهوة ولا فعل، وإن ما قضاه على العبد مما أدخله فيه بقصده وشهوته عذبه عليه، وهذا من شوم النفس وتكدير الخلق، أنها إذا أدخلت في شيء انقلب عليها شره. والامة مجتمعة على قول ما شاء الله كان، وعالم يشأ لم يكن. واجتمعت على قول لاهول ولا قوة إلا بالله، فهذا عام في كل شيء ليس في بعض الأشياء دون بعض. والحول في اللغة هو الحركة، والعرب تقول للشخص يبسومن بعيد ويظن أنه إنسان أو شجرة أو صخرة، انظروا إليه فإن كان يحول فهو إنسان، أى يتحرك. والقوة هو الثبات بعد الحركة، وهو أول الصبر، حتى يظهر الفعل بقوة الله تعالى. وقد روينا في تفسير ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاهول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله. وهذا التفصيل في هذه المعاني من الأحكام هو ظاهر العلم، وفرض القدر، وفحوى التنزيل والشرع، والجبر للملك الجبار يجبر خلقه على ما شاء، كما خلقهم لما شاء، ويردّهم إلى ما شاء، كما ينشئهم فيما يشاء، فالحكم لله العلى الكبير، الواحد القهار، يقهر عباده كيف شاء، ويجرى عليهم ما يشاء، له الحجة البالغة، والعزة القاهرة، والقدرة النافذة، والمشيئة السابقة، بوصف الربوبية، وبحكم الجبرية، وطيهم الاستسلام والانقياد والطاعة والاجتهاد، طوعا وكرها، بوصف العبودية، وبحق الملكة، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم، إن تعذبهم فإنهم عبادك، ولو شاء لهداكم أجمعين، لله الأمر من قبل ومن بعد.

الفصل الحادس والثلاثون

فيه كتاب العلم وتفصيله ووصاف العلماء. وذكر فضل علم المعرفة على سائر العلوم. وكشف طرق العلماء من السلف الصالح. وذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين في العلم. والفرق بين العلم الظاهر والباطن، وبين علماء الدنيا وعلماء الآخرة. وفضل أهل المعرفة على علماء الظاهر. وذكر علماء السوء الأكلين بعلومهم الدنيا. ووصف العلم وطريق التعليم. وذم ما أحدثه المتأخرون من القصص والكلام. وباب ذكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف. وبيان فضل الإيمان واليقين على سائر العلوم. والتحذير من الرأى

معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم، وفي الحديث الآخر أطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم. قال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم حال، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه، بأن يعلم

أحدكم حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وأخرته خاصة، فيقوم بأحكام الله تعالى عليه فى ذلك.

وقال بعض العارفين معناه طلب علم المعرفة وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره. وقال بعض علماء الشام إنما عنى به طلب علم الإخلاص، ومعرفة آفات النفس ووسوسها، ومعرفة مكاييد العدو وخدعه وغروره، وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضة كله من حيث كان الإخلاص فى الأعمال فريضة، ومن حيث أُعْلِمَ بعداوة إبليس ثم أمر بمعاداته. وذهب إلى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأرموى ومن تابعه. وقال بعض البصريين فى معناه طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة، لأنها رسل الله تعالى إلى العبد، ووسواس العدو والنفس، فيستجيب لله تعالى بتنفيذ ما منه إليه، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختيار مقتضيه مجاهدة نفسه فى نفيها، ولأنها أول النية التى هى أول كل عمل، ومنها تظهر الأفعال، وعلى قدرها تضاعف الأعمال، فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولة العدو، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس، وبين علم اليقين وتوابع العقل، ليميز بذلك الأحكام. وهذا عند هؤلاء فريضة، وهو مذهب مالك بن دينار وقرانه الصبخى وعبد الواحد بن زيد وأتباعهم من النسك. وقد كان الصنعن البصرى يتكلم فى ذلك وعنه حملوا علوم القلوب. وقال عبّاد أهل الشام معناه طلب علم الحلال فريضة، إذ قد أمر الله تعالى به وأجمع المسلمون على تفسيق أكل الحرام. وقد جاء فى خبر مفسر طلب الحلال فريضة بعد الفريضة. ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط وهيب بن الورد وهيب بن حرب. وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة معناه: طلب علم الباطن فريضة على أهله. قالوا وهذا مخصوص لأهل القلوب ممن استعمل به واقتضى منه نون غيره من عوام المسلمين، لأنه جاء فى لفظ الحديث تعلموا اليقين. فمعناه اطلبوا علم اليقين، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين، وهو من أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى، ومقامه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر فى قوله صلى الله عليه وسلم، وعلم باطن فى القلب، وهو العلم النافع. فهذا تفسير ما أجمل فى غيره.

وقال جنّاب كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلمنا الإيمان ثم يعلمنا القرآن فازدنا إيماناً، وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الإيمان، يعنى تعلمنا علم الإيمان. وهذا مذهب نساك أهل البصرة. وقال بعض السلف إنما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد وأصول الأمر والنهى والفرق بين الحلال والحرام، إذ لا غاية لسانر العلوم بعد ذلك،

وكلها يقع عليه اسم «علم» من حيث هي معلومات. ثم قد أجمعوا أن ليس «تعليم» ما زاد على ما ذكرناه فرضاً، وإنما فيه فضل أو ندب. وقال بعض فقهاء الكوفة معناه طلب علم البيع والشراء والنكاح والطلاق، وإذا أراد الدخول فيه افتُرض عليه مع دخوله في ذلك طلب طمعه، لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يتجر في سوقنا إلا من تفقه، وإلا أكل الزيا شاء أم أبى. وكما قيل تفلقه ثم أتجر. ومال إلى هذا سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابهما.

وقال بعض المتقدمين من طماء خراسان هو أن يكون الرجل في منزله، فيريد أن يعمل شيئاً من أمر الدين أو يخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد، وعلى العبد في ذلك اعتقاد أو عمل فلا يسمعه أن يسكت على ذلك، ولا يجوز له أن يعمل فيه براهيه ولا يحكم بهواه، فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله من ذلك عند النازلة، فهذا فريضة. وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث. وقال آخرون يعنى طلب علم التوحيد فرض. وإنما اختلفوا في كيفية الطلب وماهية الإصابت، فمنهم من قال من طريق الاستدلال والاعتبار، ومنهم من قال من طريق البحث والنظر، ومنهم من قال من طريق التوفيق والآثر. وقالت طائفة من هؤلاء إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتلى بها، وقد كان يسمعه ترك الطلب إذا كان غافلاً عنها على أصل التسليم ومعتقد جملة المسلمين، لا يقع في وهمه ولا يحيك في صدره شيء من الشبهات، فيسعه ترك البحث، فإذا وقع في سمعه شيء من ذلك وقر في قلبه، ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله، لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يمتد باطلاً أو ينفى حقا، فافتُرض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه حتى يكون على اليقين من أمره، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل. ولا يقعد من الطلب فيكون مقيماً على شبهة فيتبع الهوى، أو يكون شاكاً في الدين فيعدل عن طريق المؤمنين، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم. ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول في دعائه اللهم أرنا الحق حقا فنتبعه، وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك متشابها علينا فنتبع الهوى. وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبي وداود بن علي والحسين الكرابيسي والهارث بن أسد المحاسبى ومن تابعهم من المتكلمين. فهذه أقوال العلماء في معنى هذا الخبر. حكينا ذلك عن طمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة، واحتجنا لكل قول، فالألفاظ لنا والمعنى لهم، وهذا كله حسن ومحتمل، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا في تفسير الحديث بالفاظ فإنهم متقاربون في المعنى، إلا أهل الظاهر منهم فإنهم حملوه على ما يعلمونه، وأهل الباطن تأووه على طمهم. ولعمري إن

الظاهر والباطن طمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان، مرتباً لكل واحد
بالآخر كالجسم والقلب، لا ينفك أحدهما عن صاحبه.

هؤلاء المختلفون في الأقوال مجمعون أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد بذلك طلب علم
الاقضية والفتاوى، ولا علم الاختلاف والمذاهب، ولا كُتِبَ الأحاديث مما لا يتمين فرضه وإن كان
الله تعالى لا يخلو من ذلك من يقيمه بحفظه. والذي عندنا في حقيقة معنى هذا الخبر والله
أعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة يعنى علم هذه الفرائض الخمس التي بنى
الإسلام عليها من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها، ثم إن العمل لا يصح إلا بطمه فلو كُ
العمل العلم به، فصار علم العمل فرضاً من حيث افتراض العمل، فلما لم يكن على المسلمين
فرض من الأعمال إلا هذه الخمس فصار طلب علم هذه الخمس، فرضاً لأنه فرض الفرض.
والم التوحيد داخل فيها لأنه في أوله شهادة أن لا إله إلا الله بإثبات صفاته المتصلة بذاته،
ونفى صفات سواه المنفصلة عن إياه، كله داخل في علم شهادة أن لا إله إلا الله. وعلم
الإخلاص داخل في صحة الإسلام، إذ لا يكون مسلماً إلا بإخلاص العمل، لقوله صلى الله
عليه وسلم ثلاث لا يفل عليهن قلب مسلم- إخلاص العمل لله - فبدأ به واشترطه للإسلام.
والأصل في هذا أنه لم يُرد صلى الله عليه وسلم على كل ما جاز أن يكون معلوماً بإجماع
الامة، أنه لم يعن بذلك علم الطب، أو علم النجوم، ولا علم النحو أو الشعر أو المغازي، وهذه
تسمى علوماً لأنها تكون مطومة، وأربابها علماء بها. إلا أن الشرع لم يُرد بالأمر بمقتضاها.
والامة مجمعة أيضاً أنه لم يُرد بذلك علم الفتيا والقضاء، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف
الآراء، وهذه تسمى علوماً عند أهلها، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان.
والخبر جاء بلفظ العموم بذكر الكلية ومعنى الاسم، فقال طلب العلم فريضة، ثم قال على كل
مسلم بعد قوله اطلبوا العلم، فكان هذا على الأعيان فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم، ومعناه
المعمود المعروف بإدخال التعريف عليه فأشير بالآلف واللام إليه. فإذا بطلت هذه الوجوه صحَّ
أن قوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم، أى طلب علم ما بنى الإسلام
عليه، فافتراض على المسلمين علمه فريضة، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم للأعرابي حين سأله
أخبرنى ماذا افتراض الله تعالى على، وفى لفظ آخر أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى إلينا به،
فأخبره بالشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فقال هل على
غيرها فقال لا، إلا أن تطوع، فقال والله لا أزيد عليه شيئاً ولا أنقص منه شيئاً، فقال أطلع ودخل
الجنة إن صدق. فكان علم هذه الخمس فريضة من حيث كان معلومه فريضة، إذ لا عمل إلا

بعلم. وقد قال عز وجل إَلَّا من شهد بالحق وهم يعلمون، وقال في مثله حتى تعلموا ما تقولون، وقال هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظن، وقال بل اتَّبِع الَّذِينَ ظَلَمُوا أُوَءَاهِم بغير علم فمن يهدى من أضل الله، وقال تعالى ولا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، إنهم لن يفتنوا عنك من الله شيئاً، وقال سبحانه وتعالى فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إِلَّا هو، وقالوا فاسألوا أهل الذكر إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. فهذه الآي افتترض الله فيها طلب العلم، وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الإسلام الخمسة افتترض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه هذه الأعمال، ثم قال مُجْمَلًا طلب العلم فريضة، ثم وكده بقوله صلى الله عليه وسلم على كل مسلم، فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التى هى بنية الإسلام فرض لأجل فرضها.

وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق مرسل أنه مرَّ برجل والناس مجتمعون عليه فقال ما هذا، فقالوا رجل علامة، فقال بماذا، قالوا بالشعر والانساب وأيام العرب، فقال هذا علم لا يضر جهلُهُ. وفى لفظ آخر علم لا ينفع وجاهل لا يضر. وروينا فى الخبر أن من العلم جهلاً وأن من القول عيًّا. وفى الخبر الآخر قليل من التوفيق خير من كثير من العلم. وفى خبر غريب كل شيء يحتاج إلى العلم، والعلم يحتاج إلى التوفيق. والخبر المشهور قوله صلى الله عليه وسلم أعود بك من علم لا ينفع، فسمّاه علماً إذ له معلوم، وأن أصحابه علماء عند أصحابهم، ثم رفع المنفعة عنهم واستعاذ بالله منه. وقد روينا فى خبر أن الشيطان ربما سبقكم بالعلم، قلنا يارسول الله كيف يسبقنا بالعلم، قال يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم، فلا يزال فى العلم قائلاً وللعلم مسوفا حتى يموت وما عمل. وفى هذا الخبر دليلان، أحدهما أنه أريد به طلب فضول العلم الذى لا نفع له فى الآخرة ولا قرية فى طلبه من الله، والثانى أن العلم المفضل المندوب إليه إنما هو الذى يقتضى العمل لأن النبى صلى الله عليه وسلم لا يأمر بعمل بغير علم، ولا يكره طلب علم للعمل به. ألا تسمع إلى قوله صلى الله عليه وسلم فى الخبر الآخر فضل من علم أحب إلى من فضل من عمل، وخير دينكم الورع.

ذِكْرُ فَضْلِ عِلْمِ الْمَعْرِفَةِ وَالْيَقِينِ عَلَى سَائِرِ الْعُلُومِ وَكَيْفَ طَرِيقِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ

الصالح من علماء الدنيا والآخرة

قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أئوف من صحابته كلهم علماء بالله فقهاء عن الله تعالى، أهل رضوان من الله تعالى، ولم ينصب نفسه إلى الفتيا ولا حُمِلت عنه الأحكام والقضايا إِلَّا بضعة عشر رجلاً. وكان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال إذهب إلى الأمير الذى تقلد أمور الناس فضعها فى عنقه. وروى ذلك عن أنس ثم جماعة من الصحابة والتابعين

بإحسان، وكان ابن مسعود يقول إنَّ الذي يُفتى الناس في كل ما يستفتونه لجنون. وكان ابن عمر رضی اللہ عنہما يُسأل عن عشر مسائل فيجيب عن مسئلة ويسكت عن تسعة. وكان ابن عباس على ضد ذلك. كان يُسئل عن عشرة فيجيب في تسعة ويسكت عن واحدة. وكان من الفقهاء من يقول لا أدري، أكثر من أن يقول أدري. منهم سفيان الثوري ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل وفضيل بن هياض ووهب بن العارث رضی اللہ عنہم. وكانوا في مجالسهم يجيبون عن بعض ، ولم يكونوا يجيبون في كل ما يُسئلون عنه.

ورويانا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مامنهم من أحد يُسئل عن حديث أو فتيا إلا ودَّ أن أخاه كَفَّاه ذلك. وفي لفظ آخر كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر، ويردها الآخر حتى ترجع إلى الذي سأل عنها أول مرة. وروى عن ابن مسعود وابن عمر وغيرهما من التابعين، وقد رويانا مسنداً: لا يفتى الناس إلا ثلاثة، أميراً أو مأموراً أو متكلف. وتفصيل ذلك أن الأمير هو الذي يتكلم في علم الفتيا والأحكام، كذلك كان الأمراء يُسئلون ويُفتون. والمأمور الذي يأمره الأمير بذلك فيقيمه مقامه ويستعين به لشُغله بالرعية. والمتكلف هو القاص الذي يتكلم في القصص السالفة ويقص أخبار من مضى، لأن ذلك لا يُحتاج إليه في الحال ولم يُندب إليه من العلوم، وقد تدخله الزيادة والنقصان والاختلاف، فلذلك كره القصص فصار القاص من المتكلفين. وقد جاء في لفظ الحديث الآخر بتأويل معناه، لا يتكلم على الناس إلا ثلاثة: أمير أو مأمور أو مراء. فكان قولهم أمير هو المفتي في الأمضية والأحكام كما نكرناه آنفاً. ومعنى مأمور هو العالم بالله عز وجل، الزاهد في الدنيا، يتكلم في علم الإيمان واليقين، وفي علم القرآن والحث على مصالح أعمال الدين، بأمر من الله تعالى، أننَّ الله تعالى له في ذلك بقوله تعالى وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيئننه للناس ولا يكتمونه. وقد كان أبو هريرة وغيره يقولون لولا آيتان في كتاب الله تعالى ما حدثتكم بحديث أبداً، ثم يتلو هذه الآية التي قبلها ويقول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتى الله تعالى عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين، أن يُبيننه ولا يكتمه. وأما المراء فهو المتكلم في علوم الدنيا، الناطق عن الهوى، يستعمل بذلك قلوب الناس ويجتلب بكلامه المزيد من الدنيا والرفعة فيها. وقال بعض العلماء كان الصحابة والتابعون بإحسان يتدافعون أربعة أشياء: الأمانة والودعة والوصية والفتيا. وقال بعضهم كان أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علماً، وأشدهم دفعا لها وتوقفاً عنها أورعهم. وقال بعض السلف كان شغل الصحابة والتابعين بإحسان في خمسة أشياء:

قراءة القرآن، وعمارَة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل كلام بن آدم عليه لا له إلا ثلاثا، أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى. وقال الله أصدق القائلين لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس. ورأى بعض أصحاب الحديث بعض فقهاء الكوفة من أهل الرأي بعد موته في المنام، قال فقلتُ له ما فعلتَ فيما كنتَ طيه من الفتيا والرأي، قال ففكره وجهه وأعرض عني وقال: ما وجدناه شيئا وما حمدنا عاقبته. وحدثونا عن علي بن نصر بن علي الجهضمي عن أبيه قال رأيت الخليل بن أحمد في النوم بعد موته، فقلت ما أجد أعقل من الخليل لأسأله، فقال لي رأيت ما كتنا فيه؟ فإني لم أر شيئا ما رأيت أنفع من قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وحدثونا عن بعض الأشياخ قال: رأيت بعض العلماء في المنام، فقلت له ما فعلت تلك العلوم التي كتنا نجادل فيها ونناظر طيها، قال فبسط يده وفتح فيها وقال طاحت كلها هباء منثورا. ما انتفعت إلا بركعتين حصلتا لي في جوف الليل. وحدثت عن أبي داود السجستاني قال: كان بعض أصحابنا كثير الطلب للحديث، حسن المعرفة به، فمات، فرأيت في المنام، فقلت ما فعل الله بك، فسكت فأمدت عليه، فسكت، فقلت غفر الله لك، قال لا، قلت لم، قال الذنوب كثيرة والمناقشة دقيقة، ولكن قد وعدت بخير، وأنا أرجو خيرا. قلت أي الأعمال وجدتها فيما هناك أفضل؟ قال قراءة القرآن والصلاة في جوف الليل. قلت فأيما أفضل؟ ما كنت تقرأ أو تُقرئ؟ فقال ما كنت أقرأ. قلت فكيف وجدت قولنا فلان ثقة وفلان ضعيف؟ فقال إن خلصت فيه النية لم يكن لك ولا عليك.

وحدثت عن بعض الشيوخ قال، حدثني أحمد بن عمر الخاقاني قال، أريت في منامي كاتبي في طريق أمضى، إذ صادفتني رجل، فاتقبل علي وهو يقول وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك من سبيل الله، فقلت له لي تعنى، فقال لك ولذاك الذي خلقتك، فالتفت فإذا سرى (السلطى) رحمه الله، فأعرضت عن الرجل وأقبلت على السرى، وقلت هذا استاذنا ومؤيدنا الذي كان يؤيدنا في الدنيا، ثم قلت له يا أبا الحسن، إنك قد صرت إلى الله تعالى فأخبرنا بأي عمل تقبله الله تعالى، فأخذ بيدي ثم قال تعال، فجننت أنا وهو إلى بنية مثل الكعبة، فوقفنا إلى جانبها، إذ أشرف علينا من البنية شخص فأضاء ذلك الموضع منه، فأومأ سرى إليه وأشالني نحوه، وكان سرى قصيرا وأنا أيضا قصير، فمد ذلك الشخص الذي كان فوق البنية يده فأخذني فشالني إليه، فلم أقدر أفتح عيني من أنوار كانت في ذلك المكان، ثم قال لي قد

سمعتُ كلامك مع الشيخ. كلُّ خَلْقٍ في القرآن محمود تفعله، وكل خلق في القرآن مذموم تنتهى عنه، وحسبك هذا.

وقد حدثونا عن سرى السقطنى قال، كان شاب يطلب علم الظاهر ويواظب عليه، ثم ترك ذلك وانفرد، واشتغل بالعبادة، فسألت عنه فإذا هو قد اعتزل الناس وقعد فى بيته يتعبد، فقلت له قد كنت حريصا على الطلب لعلم الظاهر فما بالك انقطعت، قال رأيت فى النوم قائلاً يقول لى كم تُصَيِّعُ العلم ضيِّعَ الله، فقلت إنى لأحفظه، فقال إن حفظ العلم العمل به، فتركتُ الطلب وأقبلتُ على النظر فيه للعمل.

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم الخشية. وقال غيره من الفقهاء إنما العلم نورٌ يقذفه الله تعالى فى القلب. وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول اعلموا ما شئتم أن تعملوا، فوالله لا يؤجركم الله تعالى عليه حتى تعملوا، فإن السفهاء همتهم الرواية، وإن العلماء همتهم الرعاية. وروينا عنه أيضا أنه قال إن الله لا يعبا بذى قول ورواية، إنما يعبا بذى فهم ودراية. وقال أبو حُصَيْنٍ إن أحدهم ليُفتى فى مسئلة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر. وقال غيره يُسأل أحدهم عن الشيء فيسرع للفتيا ولو سئل أهل بدر عنها لأعضلتهم. وقال عبد الرحمن بن يحيى الأسود وغيره من العلماء إن علم الأحكام والفتاوى كان الولاة والأمراء يقومون به وترجع العامة إليهم فيه، ثم ضعف الأمر وعجزت الولاة عن ذلك ليلهم إلى الدنيا وشغلهم بالحروب عنها فصاروا يستعينون على ذلك بعلماء الظاهر وبالمُفتين فى الجوامع، فكان الأمير إذا جلس للمظالم قعد عن يمينه وشماله مُفتيان يرجع إليهما فى القضاء والأحكام، ويأمر الشرط بمثل ذلك، فكان من الناس من يتعلم علم الفتيا والقضاء، ليستعين بهم الولاة على الأحكام والقضاء، حتى كثر المفتون رغبة فى الدنيا وطلباً للرياسة، ثم اختلف الأمر بعد ذلك حتى تركت الولاة الاستعانة بالعلماء. ومما يدلُّ على ذلك حديث عمر رضى الله عنه حيث كتب إلى ابن مسعود عُقبَةَ بن عامر أَلَمْ أَخْبَرَ أَنَّكَ تَفْتَى النَّاسَ وَأَسْتَ بِأَمِيرٍ وَلَا مَأْمُورٍ. وفى حديث أبى عامر الهروى قال حججت مع معاوية فلما قَدِمْنَا مَكَةَ حَدَّثَ عَنْ رَجُلٍ يَقْضِي وَيُفْتَى النَّاسَ مَوْلَى ابْنِي مَخْزُومٍ، فَأَرْسَلُ إِلَيْهِ، فَقَالَ أَمَرْتُ بِهَذَا، قَالَ لَا، قَالَ فَمَا حَمَلَكَ عَلَيْهِ، قَالَ تَفْتَى وَنَنْشُرُ عِلْمًا عِنْدَنَا، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ لَوْ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكَ قَبْلَ يَوْمِي هَذَا لَقَطَعْتُ مِنْكَ طَابِقًا ثُمَّ نَهَا.

ولم يكونوا يقولون ذلك فى علم القلوب ولا علم الإيمان واليقين، بل قد كتب عمر إلى أمراء الأجناد احفظوا ما تسمعون من المطيعين فإنهم تُجلى لهم أمور صادقة. وقد كان عمر رضى

اللّه عنه يجلس إلى المريدين فيستمع إليهم. وفي الخبر إذا رأيت الرجل قد أوتى سمته
وزهدا فاقربوا منه فإنه تلقى الحكمة. وقال بعض أصحاب الحديث رأيت سفيان الثوري حزينا
فسألته، فقال وهو برمّ ما صرنا إلّا متجرأ لأبناء الدنيا، قلت وكيف، قال يكزّمنا أحدهم حتى
إذا عرف بنا وحمل عنا جعل عاملا أو جابيا أو قهرمانا. وكان الحسن يقول يتعلم هذا العلم
قوم لا نصيب لهم منه في الآخرة، يحفظ الله تعالى بهم العلم على الأمة لئلا يضيع. وقال
المؤمن رحمه الله لولا ثلاث لخربت الدنيا، لولا الشهوة لانقطع النسل، ولولا حب الجمع لبطلت
المايش، ولولا حب الرياسة لذهب العلم. فهذا كله وصف علماء الدنيا وأهل علم الألسنة، وأما
علماء الآخرة وأهل المعرفة واليقين فإنهم كانوا يهربون من الأمراء ومن أتباعهم وأشياعهم من
أهل الدنيا، وكانوا ينتقصون علماء الدنيا ويطمنون عليهم ويتركون مجالستهم.

وقال ابن أبي ليلي أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من الصحابة ما سئل أحدهم من
حديث ولا استفتى في فتيا إلّا ودّ أن صاحبه قد كفّاه ذلك. وقال مرة أدركت ثلثمائة يُسئل
أحدهم عن الفتيا أو الحديث فيرد ذلك إلى الآخر، ويحيل الآخر على صاحبه، وكانوا يتدافعون
الفتيا ما بينهم، ولم يكونوا إذا سئل أحدهم عن مسألة من علم القرآن أو علم اليقين والإيمان
يُحيل على صاحبه، ولا يسكت عن الجواب. وقد قال الله سبحانه فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا
تعلمون، فهم أهل الذكر لله تعالى وأهل التوحيد والعقل عن الله تعالى. ولم يكونوا يتلقون هذا
العلم دراسة من الكتب، ولا يتلقاه بعضهم من بعض بالألسنة، إنما كانوا أهل عمل وحسن
معاملات، فكان أحدهم إذا انقطع إلى الله تعالى واشتغل به واستعمله المولى بخدمته بأعمال
القلوب، وكانوا عنده في الخلوة بين يديه لا يذكرن سواه، ولا يشتغلون بغيره، فإذا ظهروا للناس
فسألوهم ألهمهم الله تعالى رشدهم، ووقفهم لسديد قولهم، وآتاهم الحكمة ميراثا لأعمالهم
الباطنة عن قلوبهم الصافية وعقولهم الزاكية وهمهم العالية، فأثرهم بحسن توفيقه أن ألهمهم
حقيقة العلم وأطلعهم على مكنون السرّ، حين أثره بالخدمة وانقطعوا إليه بحسن المعاملة،
فكانوا يجيبون عمّا عنه يسألون، أثره الله تعالى لهم، ويجميل أثره عندهم، فتكلموا بعلم القدرة
وأظهروا وصف الحكمة، ونطقوا بعلوم الإيمان وكشفوا بواطن القرآن، وهذا هو العلم النافع
الذي بين العبد وبين الله تعالى، وهو الذي يلقاه به ويسأله عنه ويثبته عليه، وهو ميزان جميع
الأعمال. وعلى قدر علم العبد بربه تعالى ترجح أعماله وتضاعف حسناته، وبه يكون عند الله
تعالى من المقرّبين لأنه لديه من الموقنين، فهم أهل الحقائق الذين وصفهم على عليه السلام،
وفضلكم على الخلائق فقال في وصفهم، القلوب أوعى وخيرها أوعاها، والناس ثلاثة، عالم

رياني، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعا عاتبُ كل ناعق، يميلون مع كل ربح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجؤا إلى ركنٍ وثيق. العلم خيرٌ من المال. العلمُ يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزكّيه العمل، والمال تنقصه النفقة. محبة العلم تينٌ يَدان به، يكسبه الطاعة في حياته وجميل الأحدث بعد موته. العلم حاكم والمال محكوم عليه. ومنفعة المال تزول بزواله. مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر. ثم تنفس الصعداء فقال هاه إن ههنا علماً جماً لو أجد له حملاً، بلى، أجد لِقناً غير مأمون يستعمل الدين في طلب الدنيا، ويستطيل بِنعم الله تعالى على أوليائه، ويستظهر بحُججه على خلقه، أو منقاداً لأهل الحق ينزغ الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا بصيرة له، وليس من رعاة الدين في شيء، إلا ذا ولا ذاك، فمنهم باللذة سلس القيادة في طلب الشهوات، أو مُغرَى بجمع الأموال والادخار منقاد لهواه، أقرب شبهاً بهما الأنعام السائمة. اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه، بل لا تخلو الأرض من قائم الله تعالى بحجة، إمّا ظاهر مكشوف وإمّا خائف مقهور، لنلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته. وأين أولئك الأتلون عدداً الأعظمون قدرا، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعها نظراهم ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين، فاستلنا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون. صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها مطقة بالمحل الأعلى. أولئك أولياء الله من خلقه وعمّاله في أرضه والدعاة إلى دينه - ثم بكى وقال واشوقاه إلى رؤيتهم!! فهذه كلها أوصاف علماء الآخرة، وهذه نعوت علم الباطن وعلم القلوب، لا علم الألسنة.

وكذلك وصفهم معاذ بن جبل رضى الله عنه في وصف العلم بالله تعالى فيما روينا من حديث رجاء بن حيوة بن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ، قال تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قرية، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزين عند الأخلاء، والقريب عند الغُرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله تعالى به أقواما، فيجعلهم الله في الخير قادة وهداة يُقتدى بهم، أدلة في الخير تُقتص آثارهم، وترمق أعمالهم، ويُقتدى بفعالهم، وينتهي إلى رأيهم، وترغب الملائكة في خلقتهم، ويأجنتها تمسحهم، حتى كل رطبٍ ويابس لهم مستغفر، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر ونعامه، والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العس، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بع العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به يطاع الله تعالى، وبه

يُعبَد، وبِه يُوحَد، وبِه يُتَوَرَّع، وبِه تُوصَلُ الأرحام. العلم إمام والعمل تابعه، تَلْمَهُ السُّعْدَاءُ وتُحْرَمُهُ الأَشْقِيَاءُ. فهذه أوصاف علماء الآخرة ونعت العلم الباطن.

وقد كان من أفضل الأمراء بعد الخلفاء الأربعة عمر بن عبد العزيز فحدثونا عن زكريا بن يحيى الطائى، قال حدثنى عمى زجر بن حصين أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن رحمهما الله، أما بعد، فأشير على بقوم أستعين بهم على أمر الله تعالى، فكتب إليه أما أهل الدين فلن يريديوك، وأما أهل الدنيا فلن تريدهم، ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يُدنسوه بالخيانة.

وكان الحسن يتكلم فى بعض علماء البصرة وينمهم، وكان أبو حازم وربيعه المدنيان يئمان علماء بنى مروان. وقد كان الثورى وابن المبارك وأيوب وابن عون يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل الكوفة. وكان الفضيل وإبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط يتكلمون فى بعض علماء الدنيا من أهل مكة والشام، كرهنا تسمية المتكلم فيهم لأن السكوت أقرب إلى السلامة. وكان بشر يقول «حدثنا» باب من أبواب الدنيا، فإذا سمعت الرجل يقول «حدثنا» فإنما يقول أوسعوا لى. وقد كان سفيان الثورى إمامه من قبله يقول لأهل علم الظاهر- طلب هذا ليس من زاد الآخرة. وقال بن وهب- ذُكِرَ طَلَبُ العِلْمِ عِنْدَ مالِكٍ فَقَالَ إِنْ طَلَبَ العِلْمَ لِحَسَنِ وَإِنْ نَشَرَهُ لِحَسَنِ إِذَا صَحَّتْ فِيهِ النِّيَّةُ، وَلَكِنْ أَنْظِرْ مَاذَا يَلْزِمُكَ مِنْ حِينَ تُصْبِحُ إِلَى حِينَ تُمَسِّي، وَمِنْ حِينَ تُمَسِّي إِلَى حِينَ تُصْبِحُ، فَلَا تُؤْتِرْنَ عَلَيْهِ شَيْئاً، وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ إِذَا طَلَبَ الرَّجُلُ الحَدِيثَ أَوْ تَزَوَّجَ أَوْ سَافَرَ فِي طَلَبِ المعَاشِ فَقَدْ رَكَّنَ إِلَى الدُّنْيَا.

وأما علم الإيمان والتوحيد، وعلم المعرفة واليقين فهو مع كل موطن حسن الإسلام، وهو مقامه من الله، وحاله بين يدي الله، ونصيبه منه فى درجات الجنة، به يكون من المقربين عنده، والعلم بالله تعالى والإيمان به قرينان لا يفترقان، فالعلم بالله تعالى هو ميزان الإيمان، به يستبين المزيد من النقصان، لأن العلم ظاهر الإيمان يكشفه ويظهره، والإيمان باطن العلم يُبَيِّجُه ويُشْعِلُه، فالإيمان مدد العلم ويصره، والعلم قوة الإيمان ولسانه، وضعف الإيمان وقوته ومزيده ونقصه، بمزيد العلم بالله عز وجل ونقصه، وقوته وضعفه.

وفى وصية لقمان الحكيم لابنه: يا بني كما لا يصلح الزرع إلا بالماء والتراب، كذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعلم والعمل. ومثل المشاهدة من المعرفة من اليقين من الإيمان، كمثل النشاء من الدقيق من السويق من الحنطة، والحنطة تجمع ذلك كله، كذلك الإيمان أصل ذلك، والمشاهدة أعلى فروعه، كالحنطة أصل هذه المعانى، والنشاء أعلى فروعها، فهذه المقامات موجودة فى

ثم إن المعرفة على مقامين، معرفة سمع ومعرفة عيان، فمعرفة السمع في الإسلام وهو أنهم سمعوا به فعرفوه وهذا هو التصديق من الإيمان؛ ومعرفة العيان في المشاهدة وهو عين اليقين. والمشاهدة أيضا على مقامين، مشاهدة الاستدلال ومشاهدة الدليل عنها، فمشاهدة الاستدلال قبل المعرفة، وهذه معرفة الخبر وهو في السمع، لسانها القول، والواجد بها واجد يعلم علم اليقين من قوله تعالى بسبأ نبأ يقين إني وجدت، فهذا العلم قبل الوجد وهو علم السمع، وقد يكون سببه التعليم، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا اليقين، أى جالسوا الموقنين وسمعوا منهم علم اليقين لأنهم علموا. وأما مشاهدة الدليل فهي بعد المعرفة التي هي العيان وهو اليقين، لسانه الوجد، والواجد بها واجد قُرب، ويُعدُّ هذا الوجد عِلْمَ من عين اليقين، وهذا يتولاه الله تعالى بنوره على يده بقدرته، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فوجدت برُّدَها فَمِلْتُ، فهذا التعليم بعد الوجد من عين اليقين باليقين، وهذا من أعمال القلوب. وهؤلاء طمء الآخرة وأهل الملكوت وأرباب القلوب، وهم المقربون من أصحاب اليمين. وعلم الظاهر من علم الملك وهو من أعمال اللسان، والطمء به موصوفون بالدنيا، وصالحوهم أصحاب اليمين.

وجاء رجل إلى معاذ بن جبل، فقال أخبرني عن رجلين، أحدهما مجتهد في العبادة كثير العمل قليل الذنوب، إلا أنه ضعيف اليقين يعتره الشك في أموره، فقال معاذ ليحبطن شكك أعماله. قال فأخبرني عن رجل قليل العمل، إلا أنه قوى اليقين، وهو في ذلك كثير الذنوب، فسكت معاذ فقال الرجل والله لئن أحببتُ شكَّ الأوَّلِ أعمال برِّه، ليحبطن يقينَ هذا ذنوبه كلها. قال فأخذ معاذ بيده وقام قائما، ثم قال ما رأيت الذي هو أفقُّه من هذا. وقد روينا معناه مسندا، قيل يا رسول الله رجل حسن اليقين كثير الذنوب، ورجل مجتهد في العباد قليل اليقين، فقال ما من أنمي إلا وله ذنوب، ولكن من كانت غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب، لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم، فَتَكَفَّرَ ذنوبه ويبقى له فضلٌ يدخل به الجنة. وروينا في حديث أبى أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أقل ما أوتيتم اليقين وهزيمة الصبر، ومن أعطى حظله منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار. وفي وصية لقمان لابنه يا بني لا يُسْتَطَاعُ العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يُقَصَّرَ عامل حتى يُقَصَّرَ يقينه، وقد يعمل العمل الضعيف إذا كان متيقنا أفضل من العمل القوى الضعيف في يقينه، ومن يضعف يقينه تغلبه المحقرات من الإثم. وقد كان يحيى بن معاذ يقول إن للتوحيد نورا والشرك نارا، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين.

واليقين على ثلاث مقامات، يقين معاينة وهذا لا يختلف خبره فالعالم به خبير، وهو للصدّيقين والشهداء ويقين تصديق واستسلام وهذا فى الخبر، والعالم به مُخبرٍ مسلم، وهذا يقين المؤمنين وهم الأبرار، منهم الصالحون ومنهم بون ذلك، كقوله تعالى وما زادهم إلا إيمانا وتسليما. وقد يضعف هؤلاء بعدم الأسباب ونقصان المعتاد، ويقوون بوجودها وجريان العادة، ويحجبون بنظرهم إلى الأواسط ويكاشفون بها، ويجعلون مزيدهم وأنسهم بالخلق، ويكون نقصهم ووحشتهم بفقدهم، ويكون من هؤلاء الاختلاف، ويتلونون بالخلاف لتلوين الأشياء وتغيرها عليهم.

والمقام الثالث من اليقين وهو يقين ظن، يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء، ويجد هؤلاء المزيد من الله تعالى والنصيب منه لهم، ويضعف بفقد الأدلة وصمت القائلين. وهذا يقين الاستدلال، وعلوم هذا فى المعقول، وهو يقين المتكلمين من عموم المسلمين من أهل الرأى وعلوم العقل والقياس والنظر. وكل موقن بالله تعالى فهو على علم من التوحيد والمعرفة، ولكن علمه ومعرفته على قدر يقينه، ويقينه من نحو صفاء إيمانه وقوّته، وإيمانه على مقتضى معاملته ورعايته، فأعلى العلوم علم المشاهدة عن عين اليقين، وهذا مخصوص للمقربين فى مقامات قُربهم ومحادثات مجالستهم ومأوى أنسهم ولطيف تملقهم. وأدنى العلوم علم التسليم والقبول بعدم الإنكار وفقد الشكوك، وهذا لعموم المؤمنین، وهو من علم الإيمان، ومزيد التصديق وهذا لأصحاب اليمين، وبين هذين مقامات لطيفات من أعلى طبقات المقربين إلى أوسط المقامات، ومن أدنى طبقات أصحاب اليمين إلى أعلى أواسط الأعلىين.

ذكر بيان تفضيل علوم الصمت وطريق الورعين فى العلوم

ورويانا فى الخبر العلم ثلاثة - كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى. وعن الشعبي أنه قال «لا أدرى» نصف العلم، يعنى أنه من الورع. وكان الثورى رضى الله عنه يقول إنما العلم الرخصة من ثقة، فأما التشديد فكل أحد يُحسنه، يعنى أن التورع والتوقف فى الأمور هو سيرة المؤمنین وإن لم يكونوا علماء، لأن الورع هو الجبن عن الإقدام والهجوم على الشبهات، والوقوف عند المشكلات بسكون أو سكوت. واليقين هو الإقدام على الأشياء ببصيرة وتمكين، والقطع بالأمر على علم وخبر. فهذا صفة العلماء الموثوق بعلمهم، لا يحسنه سواهم، كما قال على عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية وقدّمه أمامه يوم الجمل، وجعل يقول له أقدم أقدم، ومحمد يتأخر، وهو يركّزه بقائم رمحه، فالتفت إليه محمد ابنه فقال هذه والله الفتنة المظلمة العمياء، فوكّزه على برمحه ثم قال تقدّم لا أم لك، أتكون فتنة أبوك قائدها وسائقها ؟

والمرء إذا قال لا أدرى فقد عمل بعلمه وقام بحاله، فله من الثواب بمنزلة من درى، فقام

بحاله وعمل بعلمه فأظهره، فلذلك كان قول «لا أدرى» نصف العلم، ولأن حُسْنَ من سكت لأجل الله تعالى تورماً كحُسْن من نطق لأجله بالعلم تبرعاً. وقال طي بن الحسين ومحمد بن عجلان إذا أخطأ العالم قول «لا أدرى» أصيبت مقالته. وقاله مالك والشافعي بعدهما. واعلم أن مثل العلم والجهل في تفاوت الناس فيهما مثل الجنون والعقل. والمجانين طبقات كالعقلاء طبقات. وكذلك الجهال طبقات كالعلماء، فخصوص الجهال يُشبهون عموم العلماء، فهم يشتهبون على العامة حتى يحسبوا علماء وهم مكشوفون عند العلماء بالله تعالى. وكذلك العارفون يشتهبون على عموم العلماء وهم ظاهرون للموقنين.

وقال بعض العلماء العلم طمان: علم الأمراء وعلم المتقين. أما علم الأمراء فهو علم القضايا، وأما علم المتقين فهو علم اليقين والمعرفة. وقد قال الله سبحانه في وصف علم المؤمنين ونكر علم الإيمان يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، فجعل المؤمنين علماء فدل على أن العلم والإيمان لا يفترقان، والواو هنا عند أهل اللغة للمدح لا للجمع، فالعرب إذا مدحت بالأوصاف أدخلت الواو للمبالغة فقالوا فلان العاقل والعالم والأديب، ومثل هذا قوله تعالى لكن الراسخون في العلم منهم، والمؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، كله نعت، فالمؤمنون هم الراسخون في العلم، وهم المقيمون والمؤتون أيضاً، وكلهم وصف الراسخون في العلم، ولذلك انتصب قوله والمقيمين الصلاة لأنه مدح، والعرب تنصب وترفع بالمدح. وبمعناه قوله تعالى والراسخون في العلم يقولون آمنا به، فوصف العلماء بالإيمان كما وصف المؤمنين بالعلم. وكذلك قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والإيمان. ومن هذا حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أمتي خمس طبقات، كل طبقة أربعون عاماً، فطبقتي وطبقة أصحابي أهل العلم والإيمان والذين يلونهم إلى الثمانين البر والتقوى، والذين يلونهم إلى مائة وعشرين أهل التواصل والتراحم، فقرن العلم بالإيمان وقدمهم على سائر الطبقات. وقد قرن الله سبحانه الإيمان بالقرآن وهو علم، كما قرن القرآن بالإيمان، كما قال تعالى كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ. قيل القرآن وتكون الهاء عائدة إلى الله تعالى في أكثر الوجوه، كما قال ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً، فأهل الإيمان هم أهل القرآن، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته. وقال المهدي لسفيان بن الحسين لما دخل عليه وكان أحد العلماء، أمِن العلماء أنت؟ فسكت، فأعاد عليه فسكت، فقيل ألا تجيب أمير المؤمنين، فقال يسألني عن مسألة لأجواب لها، إن قلت لست بعالم وقد قرأت كتاب الله تعالى كنت كاذباً، وإن قلت إني عالم كنت جاهلاً. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أنس

فى قوله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء، قال مَنْ لم يخش الله تعالى فليس بعالم، إلا ترى أن داود صلى الله عليه وسلم قال ذلك بأنك جعلت العلم خشيتك والحكمة والإيمان بك، فما علم مَنْ لم يخشك وما حكم من لم يؤمن بك. وقد سمى عبد الله بن راحة العلم إيماناً، فكان يقول لأصحابه اقتعدوا بنا تؤمن ساعة، فيتذكرون علم الإيمان.

وقد جعل الله للمؤمنين سمعاً وبصراً وقلباً، وهذه طرائق العلم التى يؤخذ العلم منها ويوجد بها، وهى أصول العلم، والنعم التى أنعم الله على الخلق بها وطالبهم بالشكر عليها، فقال سبحانه والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون، فثبت العلم بها بعد النفى بها له. وقال تعالى فى وصف من لم يكن مؤمناً ونفى الغنىة بالعلم بها - وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله - فمن آمن بآيات الله تعالى أغنى عنه سمعه وبصره وقلبه، فكانت طرق العلم إليه. وقال عز وجل فى معنى ذلك أيضاً ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً. فلولا أن العلم يقع بالسمع والبصر والقلب مانهى عما لا يعلم هذه الأشياء، ففى النهى عن قفو ما لا يعلم هذه الأواسط، ويتبعه إثبات العلم بها، فكل مؤمن هو نوسم وبصر وقلب فهو عالم بفضل الله ورحمته.

ومما فضل الله تعالى به هذه الأمة على سائر الأمم أو خصها به ثلاثة أشياء، تبقية الإسناد فيهم، يآثره خلف عن سلف، متصلاً إلى نبيناً محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى من خلا من علمائنا، وإنما كانوا فيهم يستنسخون الصحف كلما اختلقت صحيفة جُدت، فكان ذلك أثره العلم فيهم، والثانى حفظ كتاب الله تعالى المنزل عن ظهر غيب، وإنما كانوا يقرؤن كتبهم نظراً، ولم يحفظ جميع كتاب أنزله الله تعالى قط غير كتابنا هذا، إلا ما ألهمه الله تعالى عزيراً من التوراة بعد أن كان بختنصر أحرق جميعها عند إحراق بيت المقدس، فذلك قال سبط من اليهود إنه ابن الله تعالى عز عن ذلك علواً كبيراً، لما خصه به وأفرده من حفظ جميع التوراة. والثالث أن كل مؤمن من هذه الأمة يُسئل عن علم الإيمان ويُسمع قوله ويؤخذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنه، ولم يكونوا فيما مضى يسمعون العلم إلا من الأخبار والقسيسين والرهبان لاغير من الناس. وزادها رابعة على أمة موسى صلى الله عليه وسلم ثبات الإيمان فى قلوبهم لا يعتربه الشك ولا يفتلجه الشرك مع تقليب القلوب فى المعاصى. وكانت أمة موسى عليه السلام تتقلب قلوبهم فى الشك والشرك كما تتقلب جوارحهم فى المعاصى، فذلك قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة بعد أن رأوا الآيات العظيمة من انفلاق البحر وسلوكهم فيه طرائق، وأنجاهم

من الفرق وأهلك فرعون.

ورويانا في بعض الأخبار أن في بعض الكتب المنزلة يا بنى اسرائيل لا تقولوا العلم في السماء مَنْ ينزل به. ولا في تخوم الأرضين من يصعد به، ولا من وراء البحار من يعبره يأتي به، العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يديّ آداب الرُوحانيين، وتخلّقوا إلىٰ بخلق الصديقين أظهر العلم في قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم. وفي الإنجيل مكتوب لا تطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم. وفي أخبارنا نحن، من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم، حتى قيل من عمل بعُشر ما يعلم ورثه الله علم مايجهل. وقد رويانا عن حذيفة بن اليمان إنكم اليوم في زمانٍ مَنْ ترك فيه عُشر ما يعلم هلك، ويأتي بعدكم زمان من عمل منهم بعُشر ما يعلم نجا، وهذا لقلّة العاملين وكثرة الباطلين. وفي كتابنا المُجمل المختصر واتقوا الله، ويعلمكم الله، واتقوا الله واعلموا، واتقوا الله واسمعوا.

واعلم أن من عمل بعلم أو نطق به فإصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران، أجر التوفيق وأجر العمل، وهذا مقام العارفين. ومن نطق بجهل أو عمل به وأخطأ الحقيقة فطيه وزران، وهذا مقام الجهال. ومن قال أو عمل بعلمه وأخطأ الحقيقة فله أجر لأجل العلم، وهذا مقام علماء الظاهر. ومن قال بجهل أو عمل عملا وأصاب الحقيقة فعليه وزر لتركة طلب العلم، وهذا مقام جهلة العابدين. ومثل العالم مثل الحاكم. وقد قسّم النبي صلى الله عليه وسلم الحكام ثلاثة أقسام، فقال صلى الله عليه وسلم: القضاة ثلاثة، قاضٍ قضى بالحق وهو يعلم فذاك في الجنة، وقاضٍ قضى بالجور وهو يعلم، أو قضى بالجور وهو لا يعلم فهما في النار.

ومن أحسن ما سمعت في قوله تعالى يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يُؤارى سواكم، قيل العلم، وريشاً، قيل اليقين، ولباس التقوى، أى الحياء. ورويانا عن وهب بن منبه اليماني في معناه الإيمان عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم. وقد أسنده حمزة الخراساني عن الثوريّ فرفعه إلى عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقد رويناه أيضاً مسنداً قال مسعر عن سعد بن إبراهيم وسأله سائل، أى أهل المدينة أفقه؟ فقال اتقاهم له عز وجل. وقال بعض العلماء لو قال لي قائل أى الناس أعلم، لقلت أورههم. ولو قال لي قائل أى أهل هذه المدينة خير، لقلت تعرفون أنصحهم لهم. فإذا قالوا نعم، قلت هو خيرهم. وقال آخر لو قيل لي من أحق الناس، لأخذت بيد القاضى فقلت هذا. وقال الله تعالى واتقوا الله واسمعوا، واتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً، فجعل تعالى مفتاح القول السديد والعلم الرشيد والسمع المكين التقوى، وهى وصية الله تعالى من قبلنا وإيانا، إذ يقول الله سبحانه وتعالى ولقد وصّينا الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، وهذه الآية قطب القرآن، ومداره عليها كمدار الرحى على الخشبان.

وروينا عن عيسى عليه السلام كيف يكون من أهل العمل من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه؟ وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به وهو لا يطلبه ليعمل به؟ وقال الضحّاك بن مزاحم أنركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض إلا الورع، وهم اليوم يتعلمون الكلام. وفي الحديث ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أخطوا الجدل، ثم قرأ ما ضربوه لك إلا جدلا، بل هم قوم خصمون. وفي الحديث فأما الذين فى قلوبهم زيغ الآية، هم أهل الجدل الذين عنى الله تعالى فاحذروهم. وعن بعض السلف يكون فى آخر الزمان علماء يفلق عنهم باب العمل ويفتح عليهم باب الجدل. وفي بعض الأخبار إنكم فى زمان ألهمتم فيه العمل، وسيأتى قوم يلهمون الجدل. وعن ابن مسعود أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع ويأتى بعدكم زمان خيركم فيه المتبئين، يعنى الآن لبيان الحق واليقين فى القرن الأول، وبعد ذلك فى زماننا هذا لكثرة الشبهات والالتباس ودخول المحدثات مداخل الليل فى السير، فأشكّل الأمر إلا على الفرد الذى يعرف طرائق السلف فيجتنب الحديث كله. وروينا عن بعض العلماء إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل وأطلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد سوءا أغلق عنه باب العمل وفتح عليه باب الجدل. وفي الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبغض الخلق إلى الله عز وجل الألد الخصم. وقد روينا فى خبر الحياء والعى شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق، وفى بعضها مفسرا والعى على اللسان لا على القلب. والخبر الآخر ما روى الحكم بن عيينة عن عبد الرحمن بن أبى لىلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوتى قوم المنطق إلا منعوا العمل. وفى الحديث أن الله تعالى ليبيغض البليغ من الرجال الذى يتخلل الكلام بلسانه كما يتخلل الباقرة الخلاء بلسانها، والخلاء هو الحشيش الرطيب. وكان أحمد بن حنبل يقول العلم إنما هو ماجاء من فوق، يعنى إلهاما من غير تعليم. وقال أيضا علماء أهل الكلام زنادقة. وقال قبله أبو يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق.

بيان آخر فى فضل علم الباطن على الظاهر

ومما يدلك على أن العلم الذى فضله العلماء وأعظموا ذكره وخطره، ووصفوا به العالم ومدحوه به، وجاءت بفضلها الآثار، وتذب إليه، وتفضل فى الأخبار أهله، إنما هو العلم بالله تعالى، الدال على الله تعالى، الراد إليه، الشاهد بالتوحيد فى علم الإيمان واليقين، وعلم المعرفة والمعاملة بون سائر علوم الفتيا والأحكام، أنهم يقولون من عمل بعلمه، ويذكرون العمل بالعلم،

ويصفون جملة بالخشية والخشوع، فهذا إنما هو علم القلوب لا علم اللسان الذي يكون به العلم، ولا تتأتى عنه المعاملات من أعمال الإيمان، مثل أعمال القلوب التي هي مقامات اليقين وصفات المتقين، ومثل أعمال الجوارح من الصالحات التي هي مزيد الإيمان، والذين أربابها أهل الفقر والزهد، ونو التوكل والخوف، وأصحاب الشوق والمحبة. وليس يعنون أن يكون الإنسان إذا علم علم الأحكام والقضايا عمل بها والتزم الدخول في أحكامها ليعامل منها، مثل أن يطلب القضاء فيقضى بين الناس إذا كان عالماً به، أو يقتنى المال ويدخل في البيع والشراء إذا كان عالماً بالزكوات والبياعات، أو يتزوج النساء ويطلق لأنه عالم بالنكاح والطلاق ليكون بهذه الأشياء عاملاً بعلمه، وهذا ما قاله أحد. بل قد روي في كراهة ذلك وذمه مايكثر نكره. وأهل هذه العلوم موصوفون بالرغبة في الدنيا والحرص على جمعها ويلابسون الأمراء فيعاملون لهم، فبطل أنهم هم المعنيون بالعلم، الموصوفون بالخشوع والزهد. ومثل ذلك أيضاً تفضيل الجمهور من السلف العلم على العمل، وقولهم نرة من علم أفضل من كذا من العمل، وركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من عابد. وحديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على امتي، والخبر المشهور كفضل القمر على سائر الكواكب. وقول ابن عباس وسعد وقد روينا مسنداً عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد. وكذلك قيل في موته أحب إليه من موت ألف عابد، إنما يعنون بذلك العلم بالله تعالى أفضل من العمل، لأن العلم بالله تعالى وصف من الإيمان، ومعنى من اليقين الذي لم ينزل من السماء أعز منه، فهو لا يعادله شيء، ولا يصح عمل ولا يقبل إلا به، ولأنه معيار الأعمال كلها، على وزنه تتقبل الأعمال قبولاً حسناً، بعضها أحسن من بعض، ويتقل في الميزان ثقلاً فوق ثقل، ويرفع به العاملون في درجات عليين بعضها من بعض. وقد قال تعالى ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم، ثم قال فلنقصن عليهم بعلم. وقال تعالى والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فما كان العائد منه إلى الريوية أقرب كان أفضل. والعمل وصف العامل وحكم العبودية، لأنهم يعنون العلم بالفتيا والأحكام والقضاء، التي هي أماكن الخلق عائدة عليهم، أفضل من معاملات الله سبحانه وتعالى بالقلوب من مقامات التوكل والرضا والمحبة التي هي معاينة اليقين الذي هو مقام المقربين، هذا لا يقوله عالم.

وقد روينا عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسياقهم على ما جاءت به الرسل. الأتراه كيف

جعل العلم دالاً على الله تعالى كالجهاد، وكذلك جاء في الخبر أول من يشفع الأنبياء ثم الشهداء، وفي الخبر للأنبياء على العلماء فضل درجة، وللعلماء على الشهداء فضل درجتين. وقال ابن عباس في معنى قوله عز وجل يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، قال للعلماء درجات فوق الذين آمنوا بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين خمسمائة عام. وقال ابن مسعود لما مات عمر رضى الله عنهما إنى لأحسب انه ذهب بتسعة أعشار العلم، فقيل تقول هذا وفينا جُلّه الصحابة؟ فقال ليس أضعى العلم الذى تريدون، إنما العلم بالله تعالى، فجعل العلم بالمعلومات غير حقيقة العلم، وفضل العلم بالله تعالى بتسعة أعشارها، وليس يزيد علم الظاهر على الأعمال كثيراً زيادة، إذ هو من الأعمال الظاهرة لأنه صفة اللسان، ولأنه للعموم من المسلمين، فأطى مقاماته الإخلاص، فإن فاتهم فهو دنيا كسائر الشهوات. والإخلاص هو أول حال العالم بالله تعالى بالعلم الباطن، ولا نهاية لمقاماتهم إلى أعلى مقامات العارفين ودرجات الصديقين.

باب ذكر الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة وذم علماء السوء الأكلين بعلومهم الدنيا

قد فرقت العلماء بين العلم بالله تعالى وبين العلم بأمر الله تعالى، وفرقوا بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، فقال سفيان العلماء ثلاثة، عالم بالله وبأمر الله فذلك العالم الكامل، وعالم بالله تعالى فذاك التقى الخائف، وعالم بأمر الله تعالى غير عالم بالله فذاك العالم الفاجر. وقيل أيضاً عالم لله تعالى وهو العامل بعلمه، وعالم بأيام الله تعالى وهو الخائف الراجى. وسئل سفيان عن العلم ما هو فقال هو الورع، قيل، وأى شيء الورع، فقال طلب العلم الذى يُعرف به الورع، وهو عند قوم طول الصمت وقلة الكلام، وما هو كذلك، إنما هو المتكلم العالم عندنا أفضل من الصمت.

وروينا عن لقمان في وصيته: للعلم ثلاث علامات: العلم بالله، وبما يحبه الله تعالى، وبما يكره، فجعل حقيقة العلم ودليل وجوده هذه الثلاث. ومما يدل على الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة أن كل عالم بعلم إذا رآه من لا يعرفه لم يتبين عليه أثر علمه، ولا عرف أنه عالم، إلا العلماء بالله عز وجل فإنما يُعرفون بسيماهم، للخشوع والسكينة والتواضع والذلة، فهذه صيغة الله تعالى لأوليائه وأبيستة العلماء به، ومن أحسن من الله صيغة، فمكثهم فى ذلك كمثل الصناع، إذ كل صانع لو ظهر لمن لا يعرفه لم يُعرف صنعه دون سائر الصنائع، ولم يفرق بينه وبين الصناع إلا الصناع، فإنه يُعرف بصنّعه لأنها ظاهرة عليه إذ صارت له لبسةً وصفة لا تتباسها

بمعاملته، فكانت سيماء كما قيل ما ألبس الله تعالى عبداً لبسةً أحسن من خشوع في سكينته، هي لبسة الأنبياء وسيماء الصديقين والعلماء، فأعلم الناس بلطف ما يحب الله تعالى وخفى ما يكره أهل القلوب الفاقهة عن الله تعالى وهم العارفون به.

وقد كان سهل رحمه الله يقول العلماء ثلاثة: عالم بالله تعالى، وعالم لله تعالى، وعالم بحكم الله تعالى، يعنى بالعالم بالله تعالى العارف المؤمن، والعالم لله عز وجل هو العالم بطم الإخلاص والأحوال والمعاملات، وبالعالم بحكم الله تعالى هو العالم بتفصيل الحلال والحرام، فسرتنا ذلك على معانى قوله ومعرفة مذهبه. وقد قال مرة في كلام أبسط من هذا، عالم بالله لا يثمر الله ولا بأيام الله وهم المؤمنون، وعالم بامر الله لا بأيام الله وهم المفتون في الحلال والحرام، وعالم بالله تعالى، عالم بأيام الله وهم الصديقون، يعنى قوله بأيام الله أى بنعمته الباطنة ويعقوباته الغامضة. ثم قال: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء نيام إلا الخائفين، والخائفون منقطعون إلا المحبين، والمحبون أحياء شهداء وهم المؤثرون لله تعالى على كل حال. وقد كان يقول طلاب العلم ثلاثة: واحد يطلبه للعمل به، وآخر يطلبه ليعرف الاختلاف فيتورع ويأخذ بالاحتياط، وآخر يطلبه ليعرف التؤول، فيتناول الحرام فيجطه حلالاً، فهذا يكون هلاك الحق على يديه. وقد حدثت من أبى يوسف أنه كان إذا صار رأس الحول وهب ماله لامراته واستوهبها مالها فتسقط عنهما الزكاة، فنكر ذلك لأبى حنيفة فقال ذلك من فقهه، فإنما يطلب العلم لمعرفة الورع والاحتياط للدين، فهذا هو العلم النافع، فإذا طلب لمثل هذا ولتؤول الهوى، كان الجهل خيراً منه، وصار هذا العلم هو الضار الذى استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم منه.

ورويانا عن عمر وغيره: كم من عالم فاجر، وعابد جاهل، فاتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين. وعن عمر أيضاً وقد رويناه مسنداً اتقوا كل منافق عليم اللسان يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون. ورويانا عنه أيضاً تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تعلمون، وابتواضع لكم من يتعلم منكم، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم. ورويانا عن على وابن عباس رضى الله عنهما، وعن كعب الأحبار: يكون في آخر الزمان علماء يزهدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، ويخوفون ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاة ولا ينتهون، ويؤثرون الدنيا على الآخرة، ويأكلون الدنيا باستنتهم أكلا، يقربون الأغنياء ويباعدون الفقراء، يتفايرون على العلم كما تتفاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس

غيره، ذلك حظهم من العلم. وفي حديث على رضي الله عنه علمائهم شر الخليقة، منهم بدت الفتنة وفيهم تعود. وفي حديث ابن عباس أولئك الجبارون أعداء الرحمن. وروينا عن علي عليه السلام ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلاً، عالم فاجر ومبتدع ناسك، فالعالم الفاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره، والمبتدع الناسك يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه. وقال صالح بن حسان البصرى أدركت المشيخة وهم يتعمنون بالله تعالى من الفاجر العالم بالسنة. وقال الفضيل بن عياض إنما هما عالمان، عالم دنيا وعالم آخرة، فعالم الدنيا علمه منشور، وعالم الآخرة علمه مستور، فاطلب عالم الآخرة واحذر عالم الدنيا لا يصدنك بشكره، ثم قرأ إن كثيراً من الأعبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصنون عن سبيل الله، قال فالأعبار العلماء والرهبان الزهاد. وقال سهل بن عبد الله طلاب العلم ثلاثة، فواحد يطلب علم الورع مخافة دخول الشبهة عليه، فيدع الحلال خوف الحرام، فهذا زاهد تقى، وآخر يطلب علم الاختلاف والأقاويل، فيدع ما عليه ويدخل فيما أباح الله تعالى بالسعة ويأخذ للرخصة، وآخر يسأل عن شيء فيقال هذا لا يجوز فيقول كيف أصنع حتى يجوز لي، فيسأل العلماء فيخبرونه بالاختلاف والشبهة، فهذا يكون هلاك الخلق على يديه وقد أهلك نفسه، وهم علماء السوء. وأعلم أن كل محب للدنيا ناطق بعلم فإنه أكل للمال بالباطل، وكل من أكل أموال الناس بالباطل فإنه يصد عن سبيل الله لا محالة، وإن لم يظهر ذلك في مقاله، ولكنك تعرفه في لحن معناه بدقائق الصد عن مجالسة غيره، ويلطائف المنع من طرق الآخرة، لأن حب الدنيا وغلبة الهوى يحكمان عليه بذلك شاء أم أبى.

وقال بعض العلماء إن الله عز وجل يحب العالم المتواضع ويبغض الجبار من العلماء، ومن تواضع لله تعالى ورثه الله تعالى الحكمة. وفي الخبر عن ابن مسعود أن الله تعالى ليمقت الحبر السمين. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما لك بن الصيغ حبر من أعبار اليهود: نشدتك الله تعالى، ألم تجد فيما أنزل تعالى على موسى عليه السلام أن الله تعالى يبغض الحبر السمين. وكان ابن الصيغ سمينا فغضب عندها، فقال ما أنزل الله على بشر من شيء، ففيه نزلت هذه الآية تعريفاً لبهته قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا، فقال له أصحابه ويحك ماذا قلت، جحدت كتاب موسى، فقال إنه محكنى فقلت ذلك. ويقال ما أتى الله تعالى عبداً علماً إلا أتاه جلماً وتواضعاً وحسن خلق ورفقاً، فذلك علامة العلم النافع. وقد روينا معناه في الأثر من أتاه عز وجل زهداً وتواضعاً وحسن خلق فهو إمام المتقين، وكان الحسن يقول

الحلم وزير العلم، والرفق أبوه، والتواضع سرياله. وفي أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه يا داود لا تسألنَّ عالماً قد أسكرته الدنيا فيصعدك عن طريق محبتي، أو أنك قطع طريق عبادي المرئيين. يا داود إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي. يا داود إذا رأيت لى طالباً فكن له خادماً. يا داود من ردَّ إلى هاريا كتبته عندي جهيذاً، ومن كتبته جهيذاً لم أعذبه أبداً.

ورويانا عن عيسى عليه السلام من كل علماء السوء من كل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب الماء ولا تترك الماء يظُّس إلى الزرع، وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة فلا هم نفنوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل. قال ومن كل علماء السوء كمثل قناة الحش، ظاهرها حسن وباطنها نتن، ومن كل القبور المشيدة ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى. وقال بشر بن الحارث من طلب الرياسة من العلماء فتقرَّب إلى الله تعالى ببغضه فإنه مقيت الله في السماء والأرض. وكان الأوزاعي يروي عن بلال بن سعد أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعبد بالله تعالى من حاله ويمقت، وينظر إلى عالم الدنيا قد تصنع للخلق وتشوق للطمع والرياسة فلا يمقت. هذا العالم أحق بالمقت من ذلك الشرطي. وقد كان أبو محمد يقول لا تقطعوا أمراً من الدين والدنيا إلا بمشورة العلماء تحموا العاقبة عند الله. قيل يا أبا محمد من العلماء؟ قال الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا، ويؤثرون الله تعالى على نفوسهم. وقد قال عمر رضى الله عنه في وصيته وشاور في أمورك الذين يخشون الله تعالى. ورويانا في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنَّف ثلاثمائة وستين مصحفاً في الحكمة حتى وصف بالحكم، فلوحي الله تعالى إلى نبيهم قل لفلان ملأت الأرض نفاقاً ولم تُرني بشيء من ذلك، وإنى لا أقبل شيئاً من نفاقك، قال فأسقط في يديه وحزن، وترك ذلك وخالط العامة ومشى في الأسواق وواكل بنى إسرائيل وتواضع في نفسه فلوحي الله تعالى إلى النبي عليه السلام قل له الآن وافقت رضائى.

وقال بعض العلماء كان أهل العلم على ضربين: عالم عامة وعالم خاصة، فأما عالم العامة فهو المفتى في الحلال والحرام - وهؤلاء أصحاب الأساطين، وأما عالم الخاصة فهو العالم يعلم التوحيد والمعرفة، وهؤلاء أهل الزوايا وهم المنفرون. وقد كانوا يقولون من كل الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه من كل نجلة، كل أحد يعرفها، ومن كل بشر بن الحارث مثل بنر عذبة مغطاة لا يقصدها إلا واحد بعد واحد. وقال حماد بن زيد قيل لايوب الطم اليوم أكثر أو فيما مضى؟ فقال العلم فيما مضى كان أكثر، والكلام اليوم أكثر. ففرق بين العلم والكلام. وقد كانوا

يقولون فلان عالم، وفلان متكلم، وفلان أكثر كلاماً، وفلان أكثر علماً. وكان أبو سليمان يقول المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام، وقال بعض العارفين هذا العلم على قسمين، نصفه صمت، ونصفه تدرى أين تضعه، وزاد آخر ونصفه وجد ونصفه نظر، يعنى تفكراً أو اعتباراً. وسئل سفيان عن العالم من هو؟ فقال من يضع العلم فى مواضعه ويؤتى كل شئ حقه. وقال بعض الحكماء إذا كثرت العلم قل الكلام. وقد كان إبراهيم الخواص رحمه الله يقول الصوفى كلما ازداد علماً نقصت طينته. وقال بعض شيوخنا قلت للجنيد يا أبا القاسم يكون لسان بلا قلب؟ فقال نعم قد يكون، ولكن لساناً بلا قلب بلاء، وقلباً بلا لسان نعمة، فقلت فإذا كان لساناً وقلباً؟ قال فذاك الزيد بالنرسيان يعنى العسل. وقد روينا حديثاً مقطوعاً عن سفيان عن مالك بن مغول قال قيل لرسول الله أى العمل أفضل؟ قال اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله تعالى. قيل لرسول الله فإى الأصحاب خير؟ قال صاحب "إن ذكرت أعانك، وإن نسيت ذكرتك. قيل فإى الأصحاب شر؟ قال صاحب إن سكّك لم يذكرك، وإن ذكرت لم يُعْثَكَ. قال فإى الناس أعلم؟ قال أشدهم لله تعالى خشية. قال فأخبرنا بخيارنا نجالسهم. قال الذين إذا رُؤوا ذكروا الله تعالى. قالوا فإى الناس شرّ يارسول الله؟ قال اللهم اغفر. قالوا أخبرنا يارسول الله. قال العلماء إذا فسدوا.

وقد وصف علىّ عليه السلام علماء الدنيا الناطقين عن الرأى والهوى بوصف غريب رويناها عن خالد بن طليق، عن أبيه، عن جده. وجده عمران بن حصين، قال خطبنا علىّ بن أبى طالب عليه السلام ورضى عنه فقال ذممتى رهينة وأنا زعيم، لا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظلم على الهدى شح أصل، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره، وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره. وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمّش علماً أثار فى أغباش الفتنة، عمى عما فى غيب الهدنة، سمّاه أشباه الناس وأرداهم عالماً، ولم يغن فى العلم يوماً سالماً، بكر فاستكثر مما قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من آجن، وأكثر من غير طائل، جلس للناس مفتياً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هياً لها عشو الرأى من رأيه، فهو من قطع الشبّهات فى مثل غزل العنكبوت، لا يدري أخطأ أم أصاب، ركّاب الجهالات، خبّاط عشوات ظلّمة، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعرض على العلم بضرس قاطع فيغتم، تيكى منه الدماء، وتصرخ منه المواريت، وتستحل بقضائه الفروج الحرام، لا ملكى والله بإصدار ماورد عليه، ولا هو أهل لما فرط به، أولئك الذين حلّت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا.

ووصف علىّ عليه السلام علماء الآخرة في حديث كهيل بزياد الذي يقول فيه الناس ثلاثة، عالم ربّاني، يعني عالماً بالربوبية فنسبه إلى رب، كما سماهم الله في قوله كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب الآية، فسمى العالم بكتابه ربانياً، والدارس له ربانياً، فهذا قد جمع العلم والعمل. وكذلك يقال العالم الرباني هو الذي يعلم ويعمل ويعلم الناس الخير، قال فذاك الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماء. وقال تعالى في تقدمتهم لولا ينهاهم الربانيون والأحبار، فقدّم الربانيين على الأحبار وهم علماء الكتب. وكذلك روينا عن مجاهد قال الربانيون فوق الأحبار درجة. وقال غيره والأحبار فوق الرهبان، يعني علماء القلوب، أرفع من علماء الألسنة، والعلماء بالكتب أفضل من العبّاد بدرجة، وقد ضمّهم الله تعالى إلى أنبيائه في النصره له والصبر معه في قوله تعالى وكأين من نبي قُتل معه ربيون كثير، ثم وصفهم بالثبات لأمره والقوة في دينه والصبر لحكمه في تمام الآية وربّيون، جمع ربّي، يقال ربّي وربّاني، فجمع ربّي ربيون، وجمع ربّاني ربّانيون. وكذلك جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء، فقدم العلماء على الشهداء، لأن العالم إمام أمة فله مثل أجور أمته، والشهيد عمله لنفسه. وفي خبر آخر حبر العلماء يوزن بدم الشهداء، فأعلى حال الشهيد دمه، وأدنى وصف العالم حبره، فسوى بينهما وزاد العالم على الشهيد بأعلى مقامه.

وكان علىّ عليه السلام يقول العالم أفضل من الصائم القائم، والمجاهد في سبيل الله، وإذا مات العالم ثلّم في الإسلام ثلّمة لا يسدها إلا خلف منه. وقد روينا معناه مسنداً إذا مات العالم ثلّم في الإسلام ثلّمة لا يسدها ما اطرد الليل والنهار. ألا موت العالم نجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم. ثم قال علىّ عليه السلام في حديث كهيل ومتعلم على سبيل النجاة، يعني مريداً طالباً للعلم، متعلماً من العلماء بالله تعالى، على طريق معاملتة وإخلاص لطلب السلامة، وأن ينجو من الجهل في الدنيا ومن العذاب في الآخرة، ثم قال وهمج رعا، الهمج الفراش الذي يتهافت في النار لجهله، واحدته هَمْجَة، رعا خفيف طيأش لا عقل له، يستفرزه الطمع، ويستخفه الغضب، ويزدهيه العجب ويستطيعه الكبر. ثم بكى علىّ عليه السلام، وقال هكذا يموت العلم يموت حامله، ثم تنفس عند وصف الربانيين فقال واشواقاه إلى رؤيتهم، يعني الربانيين من العلماء. فهؤلاء الذين بكى عليهم شوقاً، هم الذين اشتاق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم قبله، فقال واشواقاه إلى لقاء إخواني، ووَدّت أني قد رأيت إخواني، ثم قال هم قوم يجيئون بعدكم، ثم وصفهم فإنما كانوا إخوانه لأن قلوبهم على قلوب الأنبياء عليهم السلام، وأخلاقهم

بمعاني صفات الإيمان وهم أبدال هذه الأمة جاء في وصفهم ما يجل عن الوصف. هم على ثلاث طبقات: صديقون وشهداء وصالحون. وإن منهم من قلبه على قلب إبراهيم الخليل، ومنهم من قلبه على قلب موسى الكليم وعيسى الروح ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم وسلم أجمعين، ومنهم قلبه على قلب جبريل وميكائيل وإسرافيل، والأخوة تقع بين الاثنين في المجانسة، وقرب الشبه في الأفعال والأخلاق، كما قال الله عز وجل ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا، لما كانوا على أوصافهم في القلوب من أسرار الكفر واعتقاد الشك جعلهم إخوانا. وكذلك قال إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وهؤلاء ليسوا أمثالهم في الخلقة، ولا بينهم أبوة ولا أمومة، لأن الشياطين من ولد إبليس، والمبذرين من أولاد آدم عليه السلام، ولكن تشابهت قلوبهم في المواجيد والأخلاق والأفعال، فأخى بينهم للتشابه، فمن كان من علماء الآخرة فعقله يستضي من أنوار قلبه، وفهمه ينبئ عن استنباط علمه، ومشاهدته وأخلاقه عل معاني يقينه وقوته، وطريقه وسلوكه في منهاج سنته وسبيله، فهو من إخوانه وإخوان النبيين الذين اشتاق إلى رؤيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الغرباء بين الملا الذين قال بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء، قيل ومن الغرباء قال الذين يصلحون إذا فسد الناس، وفي لفظ آخر الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي، والذين يحيون ما أمات الناس من سنتي، يعني أنهم يظهرون طريقته التي تركها الناس وجهلواها، وفي خبر آخر هم المتمسكون بسنتي وما أنتم عليه اليوم، وفي حديث آخر الغرباء ناس قليلون صالحون بين ناس سوء كثيرين، من يبغضهم أكثر ممن يحبهم، فهؤلاء الغرباء الذين قد أنعم الله عليهم بمرافقة النبيين في أعلى عليين، فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين إلى قوله رقيقاً.

وقد كان الثوري يقول إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط. وقال أيضاً إذا رأيت الرجل محبباً إلى إخوانه، محموداً في جيرانه فاعلم انه مرء. وقد وصف الله تعالى علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد، فقال تعالى في علماء الدنيا وإن أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه، إلى قوله ثمناً قليلاً. وقال في نعت علماء الآخرة وإن من أهل الكتاب آمن بالله وما أنزل إليكم، إلى قوله لهم أجرهم عند ربهم. وقد روينا عن الضحاک عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: علماء هذه الأمة رجلان، فرجل آتاه الله علماً فبذله للناس، ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمناً، فذاك يصلى عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والكرام الكاتبون. يقدم على الله تعالى يوم القيامة

سيداً شريفاً حتى يرافق المرسلين. ورجل آتاه الله تعالى علماً في الدنيا فضنَّ به عن عباد الله عز وجل، وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا، يأتى يوم القيامة ملجماً بلجام من نار، ينادى منادى على رؤس الخلائق هذا فلان بن فلان، آتاه الله تعالى علماً في الدنيا فضنَّ به على عباد الله تعالى، وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا، يُعذَّب حتى يُفرَّغَ من حساب الناس.

ومن أغلظ ما سمعت فيمن أكل الدنيا بالعلم ماحدثونا عن عتبة بن واقد عن عثمان بن أبي سليمان، قال كان رجل يخدم موسى صلى الله عليه وسلم فجعل يقول حدثنى موسى صلى الله عليه وسلم، وحدثنى موسى نجى الله، وحدثنى موسى كليم الله، حتى أثرى وكثر ماله، ففقدته موسى صلى الله عليه وسلم، فجعل يسأل عنه فلا يحس له أثراً، حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود، فقال له موسى عليه السلام أتعرف فلانا قال الرجل نعم هو ذا الخنزير، فقال موسى يارب أسألك أن تَرُدَّهُ إلى حاله حتى أسأله فيما أصابه هذا، فأنوحى الله تعالى إليه ياموسى لو دعوتنى بما دعانى به آدم فَمَنْ بونه ما أجبتك فيه، ولكنى أخبرك لِمَ صنعتُ به هذا، لأنه كان يطلب الدنيا بالدين. ورويناه عن الحسن أنه انصرف يوماً من مجلسه فاستأذن عليه رجل من أهل خراسان، فوضع بين يديه كيساً فيه خمسة آلاف درهم، وأخرج من حقيبته رزمة فيها عشرة أثواب من دقيق بُر خراسان، فقال الحسن ما هذا، فقال يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة، فقال له عافاك الله. ضُمُّ إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك، إنه من جلس مثلاً مجلسى هذا وقبِلَ من الناس مثلاً هذا لَقِيَ الله تعالى يوم القيامة لاخلِّقَ له. وفي خبر إن العبد ليُنشَرَّ له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة.

وعلماء الدنيا الطالبون لها بالعلم الأكلون لها بالدين، المتخنون الأصدقاء والأخلاء من أبنائها، المُكْرَمون المحبون لهم، المقبلون بالبُسر والبشاشة عليهم، هم معروفون في كل زمان بأوصافهم وأحْسَن قولهم وسيماهم. وقد روينا في مقامات علماء السوء حديثاً شديداً نعوذ بالله من أهله ونسأله أن لايبولنا بمقام منه، فرويناه مرة مسنداً من طريق، ورويناه موقوفاً على معاذ بن جبل رضى الله عنه، وأنا أنكره موقوفاً أحبُّ إلى. حدثونا عن منذر بن على عن أبي نعيم الشامى عن محمد بن زياد عن معاذ بن جبل، يقول فيه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع. وفي الكلام تنميق وزيادة، ولا يؤمن على صاحبه الخطأ، وفي الصمت سلامة وعلم. ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره فذلك في الدرك الأول من النار. ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان، فإن رُدَّ

عليه شيء من علمه أوتهاون بشيء من حقه فغضب فذلك في الدرك الثاني من النار. ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشرف واليسار، ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً، فذلك في الدرك الثالث من النار. ومن العلماء من يتنصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ، والله عز وجل يبغض المتكلمين، فذلك في الدرك الرابع من النار. ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليفرض به علمه فذلك في الدرك الخامس من النار. ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلاً وذكرًا في الناس فذلك في الدرك السادس من النار. ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب فإن وعظ عنف، وإن وعظ أنف فذلك في الدرك السابع من النار. عليك بالصمت فيه تغلب الشيطان، وإياك أن تضحك من غير عجب، أو تمشي في غير أرب.

وقد روينا حديثاً يدل على أوصاف علماء الآخرة، وفيه أصول ما يدعون الخلق إليه من مقامات الإيمان وأسباب الدين والإيقان، روينا عن شقيق بن إبراهيم البلخي عن عباد بن كثير عن أبي الزبير عن جابر، ذكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وواقفته أنا على جابر بن عبد الله، قال لا تجلسوا عند كل عالم إلا عالم يدعوكم من خمس إلى خمس، من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة. ومما يدل أن علم اليقين والتقوى، وعلم المعرفة والهدى، هو العلم المذكور المقصود عند السلف، أن الصحابة والتابعين كانوا يشفقون من فقد ذلك ويخافون عدمه، ويخبرون عن رفعه وقلته في آخر الزمان، وإنما يعنون بذلك علم القلوب والمشاهدات الذي هو نتيجة التقوى، وعلم المعرفة واليقين الذي هو من مزيد الإيمان وثمره الهدى، فإذا فقد المتقون وقل الخائفون وعدم الزاهنون، ذهب هذه العلوم، لأنها قائمة بهم موجودة عندهم، هم أربابها والناطقون بها، وهي أحوالهم وطرائقهم. هم السالكون لها والقائمون بها. فلأجل معرفة الصحابة والتابعين عزّة ذلك كانوا يبكون على فقده. وقد وصف الله العلماء بالزهد في الدنيا والاستصغار لها، ويعمل الصالحات والإيمان بها. كما وصف أبناء الدنيا بالرغبة فيها والاستعظام لها، قال تعالى في معنى ذلك فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون، إنه لنوحظ عظيم، وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً، ثم قال عز وجل ولا يلقاها إلا الصابرون، أي لا يلقى هذه الحكمة إلا الصابرون عن زينة الدنيا التي خرج فيها قارون.

وروينا عن جندب بن عبد الله البجلي، قال كنتُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غلماناً

حَزْأَوِرَة، فِيعَلَمِنَا الإِيمَان قِبَلِ القُرْآن، ثَم تَعَلَمْنَا القُرْآن فَازِدِنَا إِيْمَانًا. وَعِن ابْنِ مَسْعُودٍ قَال أَنْزَلَ القُرْآنَ لِيُعْمَلَ بِهِ فَاتَّخَذْتُمْ دِرَاسَتَهُ عَمَلًا، وَسِيَّاتِي قَوْمٌ يُتَّقِفُونَهُ تَثْقِيفَ الغِنَاءِ، لَيْسُوا بِخِيَارِكُمْ. وَفِي لَفْظٍ آخَرَ يُقِيمُونَهُ إِقَامَةَ القُدْحِ، يَتَعَجَّلُونَهُ وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ. وَرَوَيْنَا عَنِ ابْنِ عَمْرِو وَغَيْرِهِ لَقَدْ عَشْنَا بَرَهَةً مِنْ دَهْرِنَا، وَإِنْ أَحَدُنَا يُؤْتَى الإِيمَان قِبَلِ القُرْآن، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ فَيَتَعَلَّمُ حِلَالِهَا وَحِرَامِهَا، وَأَمْرَهَا وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَقَّفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَتَعَلَّمُونَ أَنْتُمْ الْيَوْمَ القُرْآنَ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ القُرْآن قِبَلِ الإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ لَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ، وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدُّقْلِ. وَفِي الخَبْرِ الآخِرِ بِمَعْنَاهُ كُنَّا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْتِينَا الإِيمَان قِبَلِ القُرْآنِ، وَسِيَّاتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يُؤْتُونَ القُرْآن قِبَلِ الإِيمَانِ، يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ وَيُضَيِّعُونَ حُدُودَهُ، وَيَقُولُونَ قَرَأْنَا فَمَنْ أَقْرَأَ مِنَّا، وَعَلِمْنَا فَمَنْ أَعْلَمَ مِنَّا، فَذَلِكَ حَظُّهُمْ مِنْهُ. وَفِي لَفْظٍ آخَرَ أَوْلَتْكَ شِرَارَ هَذِهِ الأُمَّةِ.

فَأَمَّا العِلْمُ المَانُورُ الَّذِي نَقَلَهُ خَلْفَ عَنِ سَلْفِ، وَالخَبِيرُ المَرْسُومُ فِي الكُتُبِ المَسْتَوْدَعِ فِي الصِّحْفِ، الَّذِي يَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِ عَمَّنْ قَدِيمٍ، فَهَذَا عِلْمُ الأَحْكَامِ وَالفُتْيَا، وَعِلْمُ الإِسْلَامِ وَالقَضَايَا، طَرِيقَةُ السَّمْعِ، وَمِفْتَاحُهُ الاسْتِدْلَالُ، وَخَزَائِنَتُهُ العَقْلُ، وَهُوَ مُؤَوَّنٌ فِي الكُتُبِ وَمُحَبَّرٌ فِي الوَرَقِ، يَتَلَقَّاهُ الصَّغِيرُ عَنِ الكَبِيرِ بِالأَلْسِنَةِ، وَهُوَ بَاقٍ بَقَاءَ الإِسْلَامِ، وَمَوْجُودٌ بِوُجُودِ المُسْلِمِينَ، لِأَنَّهُ حِجَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَمَحَجَّةُ العَمُومِ مِنْ خَلْقِهِ، فَضَمَّنَ إِظْهَارَهُ، فَلَمْ يَكُنْ لِيُظْهِرْ إِلَّا بِحَمَلَةِ تَظْهِرُهُ، وَتَقَلَّةِ حِمْلِهِ، فَقالَ تَعَالَى لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ، وَكَمَا قالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَعْنَاهُ وَعِلْمٌ ظَاهِرٌ عَلَى اللِّسَانِ فَذَلِكَ حِجَّةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ، وَيُسْمَعُ مِنْ سَمْعِ مَنْكُمْ، فَأَخْبِرْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالعِلْمِ العَتِيدِ المَسْتَوْدَعِ ظَهُورَ الكُتُبِ، الَّذِي هُوَ ظَاهِرُ الدِّينِ، وَفِي جِهَلِهِ وَعَدَمِهِ وَجُودِ الشَّرْكِ. كَمَا ضَمَّنَ اللَّهُ تَعَالَى تَبْقِيَةَ الإِسْلَامِ عَلَى كَرِهِ المُشْرِكِينَ. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِمَ اللَّهُ مَنْ سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ غَيْرَ فَفَقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ. وَقَدْ أَخْبَرَ أَنْ حَامِلُ الفَقْهِ قَدْ يَكُونُ غَيْرَ فَفَقِيهِ القَلْبُ إِذَا لَمْ يَعْملْ بِعِلْمِهِ، وَأَنَّهُ قَدْ يَحْمِلُهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ إِذَا عَمِلَ بِهِ وَإِذَا وَعَاهُ، كَمَا قالَ فِي الخَبْرِ الآخِرِ رَبُّ مَبْلُغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَمَدَحَهُ بِالعَمَلِ بِهِ إِذَا وَعَاهُ، فَتَذَكَّرَ بِهِ وَتَفَكَّرَ فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَمِعَهُ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَعَالَى وَتَعَالَى أُنْذُرُ وَأَعِيَّة، يَعْنِي أُنْذُرُ القَلْبِ الحَافِظَةَ مَاسْمَعَتِ، الذَّاكِرَةَ لِمَا وَعَتَ. كَمَا قالَ تَعَالَى إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، يَعْنِي أَصْفَى بِسَمْعِهِ إِلَى سَامِعِهِ

وشهد بقلبه ما سمعه من شاهده. وقد جاء في تفسير قوله تعالى أذُنٌ وَاَعْيَةٌ، قال أذُنٌ عَقَلْتُ عن الله تعالى أمره ونهيهِ فوعته وعملت به، كما وصف سبحانه وتعالى المؤمنين الذين نعتهم بقوله في تمام وصفهم بالحافظون لحدود الله تعالى.

وقد روينا عن علي رضي الله عنه اطلبوا العلم تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله. وقال أيضا رضي الله عنه إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه ولا تُخلطوه بهزل فتمجُّه القلوب. وقال بعض السلف مَنْ ضحك ضحكة مَجَّ مَجَّةً من العلم. وقال الخليل بن أحمد رحمه الله ليس العلم ماحواه القمطر، إنما العلم ماوعاه الصدر. وإذا جمع العالم ثلاثاً تمت النعمة به على المتعلم: الصبر والتواضع وحُسن الخلق. وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة به على العالم: العقل والأدب وحُسن الفهم. والله أعلم.

ذكر وصف العلم وطريقة السلف وذم ما أحدث المتأخرون من القصص والكلام

لا بد للعالم بالله تعالى من خمس هي علامة علماء الآخرة: الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق والزهد. قال الله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء. وقال تعالى خاشعين لله الآية، فلا بد له من التواضع وحُسن الخلق، وقال الله عز وجل واخفض جناحك للمؤمنين، وقل إني أنا النذير المبين، وقال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم الآية - والزهد في الدنيا، قال الله تعالى وقال الذين أوتوا الكتاب ويلكم ثواب، الله خير. فمن وجد فيه هذه الخلال فهو من العلماء بالله عز وجل.

واعلم أنه إنما يستبين العالم عند المشكلات في الدين، ويحتاج إلى العارف عند شبهات حاكت الصدور، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لاتزالون بخير ما إذا حاك في صدر أحدكم شيء وجد من يخبره به ويشفيه منه، وإيم الله أوشك أن لاتجدوا ذلك. وكما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الناس أعلم، فقال الله ورسوله أعلم، فقال أعلمهم بالحق إذا اشتبهت الأمور ووقعت المشكلات وإن كان يزحف على إسته، فكذلك إذا اختلف الناس وإن كان في عمله تقصير. وكما قال في حديث عمران بن حصين إن الله تعالى يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند هجوم الشهوات، ويحب السخاء ولو على تمرات، ويحب الشجاعة ولو على قتل الحيات.

وقد حصلنا في زماننا هذا في مثل ماخافه ابن مسعود، لأن مشكلة لو وردت في معاني

التوحيد، وشبهة لو اختلفت في صدر مؤمن من معاني صفات المُوحَّد، وأردت كشف ذلك على حقيقة الأمر بما يشهده القلب المُوفِّق، ويُلجج له الصدر المشروح بالهدى، كان ذلك عزيزاً في وقتك هذا، ولَكُنْتُ في استكشاف ذلك بين خمسة نفر، مبتدع خصال يخبرك براهه عن هواه فيزيدك حيرة، أو متكلم يُفتيك بقصور علمه عن شهادة الموقنين، وبقياس معقوله على ظاهر الدين، وهذا شبهة فكيف تنكشف به شبهة، أو صوفي شاطح تائه غالط يجاوز بك الكتاب والسنة لا يبيالهما، ويخالف بقوله الأئمة لا يتحاشاها فيجيبك بالظن والوسواس والحدس والتمويه، ويمحو الكون والمكان، ويُسقط العلم والأحكام، ويُذهب الأسماء والرسوم، وهؤلاء تانهون في مفازة التيه لم يقفوا على الحجَّة، قد غرقوا في بحر التوحيد، لم يُجعلوا أئمة المتقين ولا حُجَّة للمتقين، وهذا ساقط القول إذ ليس معه حجة، ولا هو على سنن الحجَّة، ومُتِّع عالم عند نفسه موسوم بالفقه عند أصحابه، يقول لك هذا من أحكام الآخرة ومن علم الغيب لانتكلم فيه لأننا لم نُكلفه، وهو في أكثر مناظرته يتكلم فيما لم نُكلف، ويجالد فيما لم يُنتطق به السلف، ويتعلم ويُعلِّم ما علمه بتكلف، ولا يعلم المسكين أنه كُفِّف علم يقين الإيمان وحقيقة التوحيد ومعرفة إخلاص المعاملة، وعلم ما يقدح في الإخلاص ويخرج من جملة قبل ما هو فيه، لأنه متكلف لبعض ما هو يبتغيه، لأن علم الإيمان وصحة التوحيد، وإخلاص العبودية للربوبية، وإخلاص الأعمال من الهوى الدنيوية وما يتعلق بها من أعمال القلوب، هو من الفقه في الدين ونعت أوصاف المؤمنين، إذ مقتضاه الإنذار والتحذير لقوله تعالى، ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم الآية، ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم تعلموا اليقين فإنني متعلم معكم، ولقول الصحابة رضى الله عنهم تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازدنا إيماناً، فهذا مزيد الهداية بالإيقان، وهو زيادة المؤمنين في الإيمان، كما قال تعالى فزادهم إيماناً، وقال عز وجل ويزيد الله الذين اهتموا هدى. ولا يشعران حسن الأدب في المعاملة بمعرفة ويقين هو من صفات الموقنين، وذلك هو حال العبد في مقامه بينه وبين ربه عز وجل، ونصيبه من ربه تعالى وحظه من مزيد آخرته، وذلك معقود بشهادة التوحيد الخالصة، المقترنة بالإيمان من خفايا الشرك وشُعب النفاق، وهو مقترن بالفرائض وفروض فُرُضها الإخلاص بالمعاملة، وإن علم ماسوى هذا مما قد أُشرب قلبه وحُبب إليه من فضول العلوم وغرائب الفهوم إنما هو حوائج الناس ونوازلهم، فهو حجاب عن هذا واشتغال عنه، فآثر هذا الغافل لقلته معرفته بحقيقة العلم النافع، ما زَيْن له طلبه وحُبب إليه قصده، آثر حوائج الناس وأحوالهم على حاجته وحاله، وعمل في أنصبتهم منه في عاجل دنياهم من نوازل طوارقهم

وفتياتهم، ولم يعمل في نصيبه الأوفر من ربه الأعلى لأجل آخرته التي هي خير وأبقى، إذ مرجعه إليها ومثواه المؤيد فيها، فاتر التقرب منهم على القربة من ربه عز وجل، وترك للشغل بهم حظه من الله تعالى الأجزل، وقدم التفرغ لهم على فراغ قلبه لما قدم لغده من تقواه، بالشغل بخدمة مولاه وطلب رضاه، واشتغل بصلاح أسنتهم عن صلاح قلبه، وظواهر أحوالهم عن باطن حاله. وكان سبب ما بلى به حب الرياسة وطلب الجاه عند الناس، والمنزلة بموجب السياسة، والرغبة في عاجل الدنيا وعزها بقلّة الهمة وضعف النية في عاجل الآخرة وذخره، فافنى أيامه لأيامهم، وأذهب عمره في شهواتهم، ليسميه الجاهلون بالعلم عالماً، وليكون في قلوب البطالين عندهم فاضلاً، فورد القيامة مفلساً، وعندما يراه من أنصبة المقربين ملبساً، إذ فاز بالقرب العاملون، وريح الرضا العاملون، ولكن أني له وكيف ينصيب غيره وقد جعل الله تعالى لكل عمل عاملاً، ولكل علم عالماً. أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، كل ميسر لما خلق له. هذا فصل الخطاب بينهما، فإن الأمة لم تختلف إن علم التوحيد فريضة، سيماً إذا وقعت الشبهات، وأدخلت فيه المشكلات، وإنما اختلفوا في مستلتي، أي شيء هو التوحيد، وفي كيفية طلبه والتوصل إليه، فمنهم من قال بالبحث والطلب، ومنهم من يقول بالاستدلال والنظر، ومنهم من قال بالسمع والأثر، وقال بعضهم بالتوقيف والتسليم، وقال بعض الناس يدرك نركه بالعجز والتقصير عن بلوغ دركه.

والرجل الخامس من العلماء هو صاحب حديث وأثار وناقل رواية الأخبار، يقول لك إذا سألته اعتقد التسليم وأمر الحديث كما جاء ولا تفتش، وهذا يتلو المفتى في السلامة، وهو أحسنهم طريقة وأشبههم بسلف العامة خليفة، ليس عنده شهادة يقين ولا معرفة بحقيقة ما رآه، ولا هو مشاهد واصف لمعنى ما نقله، إنما هو للعلم رواية، وللأثر والخبر ناقلة عن غير خبر يخبره، ولا فقه في نقله، فهو على بينة من ربه وليس يتلوه شاهد منه. وقد كان الزهري يقول حدثني فلان وكان من أوعية العلم، ولا يقول وكان عالماً. وكان مالك بن أنس رحمه الله يقول أدركت سبعين شيخاً من التابعين، منهم عباد، ومنهم مستجاب الدعاء، ومنهم من يستسقى به، ما حملت عنهم علماً قط. قيل ولم ذاك، قال لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وفي رواية لم يكونوا يدرون ما يحدثون به، ولم يكن لهم فقه فيما يسألون عنه. قال مالك وتقدم علينا ابن شهاب الزهري وهو حديث السن، فنزحتم عليه حتى لا نصل إليه، لأنه كان عالماً بما يحدث به. فهذا بمعنى ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

وقال بعض السلف ما كانوا يعدون عِلْمَ مَنْ لا يعرف اختلاف العلماء علماً. وقال آخر من لم يعرف اختلاف العلماء لم يحلَّ له أن يفتى ولم يُسمَّ عالماً. وقال قتادة وسعيد بن جبير أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس. وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه إذا كتب الرجل مائة ألف حديث له أن يفتى؟ قال لا. قيل، فمائتي ألف حديث؟ قال لا. قيل فثلاثمئة ألف حديث؟ قال أرجو.

وفى التوراة مكتوب الطيب الحاذق للعة الباطنة يصلح. وكتب سلمان الفارسي من المدائن إلى أبي الدرداء، وكان قد أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فيمن أخى، يا أخى بلغنى أنك أقعدت طبيبا تداوى المرضى، فانظر فإن كنت طبيبا فتكلم فإن كلامك شفاء، وإن كنت متطببا فالله الله، لا تقتل مسلما. قال فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل عن شيء. وسأله إنسان عن شيء، فأجابه ثم قال ربّوه، فقال له أعد عليّ فأعاد، فقال متطبب والله. فرجع في جوابه. ولعمري أنه قد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من تطيب ولم يُعلم منه طب فقَتَلَ فهو ضامن. وقد كان ابن عباس رضى الله عنه يقول سلوا جابر بن زيد فلو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم. وكان من صالحى التابعين. وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا سئل عن شيء يقول سلوا سعيد بن المسيب. وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يقول سلوا مولانا الحسن فإنه قد حفظ ونسينا. وقال بعض البصريين قَدِمَ علينا رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتينا الحسن فقلنا ألا تذهب إلى هذا الصحابي فنسأله عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجيء معنا، قال نعم فاذهبوا، قال فجعلنا نسأله عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل يحدثنا حتى حدثنا عشرين حديثا. قال والحسن يُنصت يستمع إليه، ثم جثا الحسن على ركبتيه فقال يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا تفسير ما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نفقه فيه، فسكت الصحابي وقال ما عندي إلا ما سمعت، قال فابتدأ الحسن رحمه الله يفسر ما رواه، فقال أما الحديث الأول الذى حدثتنا فإن تفسيره كيت وكيت، والحديث الثانى تفسيره كذا وكذا، حتى سرد عليه الأحاديث كلها التى حدثنا بها وأخبرنا بتفسيرها، قال فلا ندري نَعَجِبُ من حُسْنِ حفظه إياه وأدائه الحديث، أو من علمه وتفسيره. قال فأخذ الصحابي كفاً من حَصَى وَحَصَبًا به ثم قال، تسألونى عن العلم وهذا الخبر بين أظهركم: فهؤلاء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يردون الأمور فى الفتيا وعلم اللسان إلى من هو دونهم فى القَدْرِ والمنزلة، وهو فى علم التوحيد والمعرفة

والإيمان فوقهم درجات، ولا يرجعون إليهم فى الشبهات، ولا يُردون إليهم فى علم المعرفة واليقين، فهذا كما قيل إنما العلم نور يقذفه الله تبارك وتعالى فى قلوب أوليائه، فقد يكون ذلك تفضيلاً للنظرَاء بعض على بعض، وقد يكون تخصيصاً للشباب على الشيوخ، ولئن جاء بعد السلف من التابعين، وربما كان تَكْرُمَةً للخاملين المتواضعين، لينبئ عليهم ويعرفون شأنهم، ليعظّموا ويرقّعوا كما قال الله تعالى ونريد ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة. والنور إذا جعل فى الصدر انشرح القلب بالعلم ونظر باليقين، فنطق اللسان بحقيقة البيان، وهو الحكمة التى يؤدعها الله تعالى فى قلوب أوليائه، كما جاء فى تفسير قوله عز وجل وأتيناها الحكمة وفصل الخطاب، قيل الإصابة فى القول فكأنه يوفقه للحقيقة، وقوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً. قيل الفهم والفتنة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وصف الهداية حين تلا قوله عز وجل فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، فقيل يارسول الله ما هذا الشرح، فقال إن النور إذا قُذِفَ فى القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل فهل لذلك من علامة، قال نعم التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله. فذَكَرَ سببه الزهد فى الدنيا، والإقبال على خدمة المولى، وحسن التوفيق والإصابة فى العلم، مواهب من الله عز وجل وأثرة يختص بها من يشاء. كما سئل أبو موسى الأشعري وهو أمير الكوفة عن رجل قُتِلَ فى سبيل الله مُقبلاً غير مدبر أين هو، فقال أبو موسى فى الجنة، فقال ابن مسعود للسائل أعد على الأمير قُتْيَاكَ فلعله لم يفهم، قال السائل قلت أيها الأمير ما قولك فى رجل قُتِلَ فى سبيل الله فقتل مقبلاً غير مدبر، أين هو، فقال أبو موسى فى الجنة، فقال ابن مسعود رضى الله عنه أعد على الأمير فلعله لم يفهم، فأعاد عليه ثلاثاً، كل ذلك يقول أبو موسى فى الجنة، ثم قال ما عندي غير هذا، فما تقول أنت؟ فقال ابن مسعود لكنى لا أقول هكذا، قال فما قولك، فقال أقول إن قُتِلَ فى سبيل الله فأصاب الحق فهو فى الجنة، فقال أبو موسى صدق لاتسألونى عن شئ مادام هذا الحبر بين أظهركم.

والقول فى تسليم أخبار الصفات والسكوت عن تفسيرها كما قال أصحاب الحديث، إلا أن بمعرفة معانى الأسماء والصفات وشهودها يُنفى الظن والوسواس فيها. وترك التشبيه والتمثيل بها، والطمأنينة إلى اليقين بالمعرفة بمشاهدتها، هو مقام الموقنين. واعتقاد أنها صفات لله تعالى يتجلى بها وبما شاء من غيرها، بلا حد ولا عدد، يظهر بصفة صفة كيف شاء، غير

موقوف على صفة، ولا محكوم عليه بصورة بلا إظهار غيرته، بل هو كيف ظهر وبأى وصف تجلّى، مع نفي الكيفية والمثلية لفقد الجنس والجوهرية، هو مقام المُقَرَّبِينَ من الشهداء، وهؤلاء هم الصديقون وخصوص الموقنين، فمن عدل به عن وجهة هؤلاء ولم يواجه بشهادتهم عدل إلى التسليم والتصديق، فوقف عنده فكان معقله واستراحته، وليس بعد هؤلاء مقام يُمدح ولا وصف يُذكر، فمن فتش ذلك بمعقله وفسره برأيه دخل عليه التشبيه أو خرج إلى النفي والإبطال.

ومن الدليل على فضل هذا العلم على سائر العلوم ما جاء في الأخبار الماثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة والتابعين، في فضل مجالس الذكر وفضل الذاكرين وإنما يريدون به علم الإيمان والمعرفة وعلوم المعاملات، والتفقه في بصائر القلوب، والنظر بعين اليقين إلى سرائر الغيوب، وليس يريدون به مجالس القصص، ولا يعنون بذلك القصاص، لأنهم كانوا يروون القصص بدعة، ويقولون لم يقص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى بكر ولا عمر حتى ظهرت الفتنة، فلما وقعت الفتنة ظهر القصاص، ولما دخل على رضى الله عنه البصرة، جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول لا يقص في مسجدنا، حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم في هذا العلم فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرج. وجاء ابن عمر إلى مجلسه من المسجد فوجد قاصاً يقص، فوجه إليه صاحب الشرطة أن أخرجه من المسجد فأخرجه، فلو كان القصص من مجالس الذكر، والقصاص علماء، لما أخرجهم ابن عمر من المسجد، هذا مع ورعه وزهده. وقد روينا عن ابن شؤذب عن أبي التياح قال قلت للحسن إمامنا يقص فيجتمع الرجال والنساء فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم، فقال الحسن رفع الصوت بالدعاء بدعة، ومدّ الأيدي بالدعاء بدعة. وروى أبو الأشهب عن الحسن القصص بدعة. وقيل لابن سيرين: لو قصصت على إخوانك، فقال قد قيل لا يتكلم على الناس إلا أحد ثلاثة: أمير أو مأمور أو أحمق، فليست بأمير ولا مأمور، وأكره أن أكون الثالث. وروينا عن عون بن موسى عن معاوية بن قررة قال، سألت الحسن البصرى، قلت أعود مريضاً أحب إليك أو أجلس إلى قاص؟ فقال عد مريضك. فقلت أشيع جنازة أحب إليك أو أجلس إلى قاص؟ قال شيع جنازتك. قلت وإن استعان بى رجل فى حاجة أعتته أو أجلس إلى قاص؟ قال اذهب فى حاجتك - حتى جعله خيراً من مجالس الفراغ. فلو كانت مجالس الذكر عندهم هى مجالس القصاص، ولو كان القصص هو الذكر، لما وسع الحسن أن يثبط عنه ولا يؤثر عليه كثيراً من الأعمال، لأنه قد كان يدعو إلى الله تعالى بالتوحيد ويتكلم فى علم المعرفة واليقين.

والذاكرون لله تعالى وحضور مجلس الذكر من مزيد الإيمان. وقد رفع الله تعالى مقام
الذاكرين فوق مقام المؤمنين في قوله تعالى - إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات،
فجعل الذاكرين والذاكرات أعلى المقامات. وقد روينا في خبر أبي نر حضور مجلس ذكر أفضل
من صلاة ألف ركعة، وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض، وحضور مجلس علم
أفضل من شهود ألف جنازة. قيل يارسول الله ومن قراءة القرآن؟ فقال وهل تنفع قراءة القرآن
إلا بعلم. وقال بعض السلف حضور مجلس نكَّر يكفَّر عشرة من مجالس الباطل. وأما عطاء
فإنه قال مجلس نكَّر يكفَّر سبعين مجلسا من مجالس اللهو. وحدثونا عن معاذ قال رأني يونس
بن عبيد وأنا في حلقة المعتزلة فقال تعال فجنّت ، فقال إن كنت لابد فاعلا فعليك بحلقة
القصاص.

وقد كان الحسن البصري أحد المُذَكِّرِين، وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع
إخوانه وأتباعه من النُّسَاك والعبّاد في بيته، مثل مالك بن دينار وثابت البنّاني وأيوب
السخستاني ومحمد بن واسع وفرقد السبخي وعبد الواحد بن زيد، فيقول
هاتوا انشروا النور، فيتكلم عليهم في هذا العلم من علم اليقين والقدرة، وفي خواطر القلوب
وفساد الأعمال ووسواس النفوس. وربما قنّع بعض أصحاب الحديث رأسه فاخفتى من رائهم
ليسمع ذلك، فإذا رآه الحسن قال له يالكع وأنت ماتصنع ههنا، إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر.
والحسن رحمه الله هو إمامنا في هذا العلم الذي نتكلم به، إثره نقفو، وسبيله تتبع، ومن مشكاته
نستضيء، أخذنا ذلك بإذن الله تعالى إماما عن إمام ، إلى أن ينتهي ذلك إليه، وكان من خيار
التابعين بإحسان. قيل ما زال يعي الحكمة أربعين سنة حتى نطق بها، وقد لقي سبعين بدريا،
ورأى ثمانمائة صحابي، وولد لليلتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة عشرين
من التاريخ ، ولد بالمدينة، وكانت أمه مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ويقال إنها
ألقت ثديها تعلقه حين بكى فدرثديها عليه، وكان كلامه يُشَبَّه بكلام رسول الله صلى الله عليه
وسلم. ورأى عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ومن بقى في وقته من العشرة، ثم رأى من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد عثمان، ومن سنة نيف وعشرين من الهجرة إلى
سنة نيف وتسعين. ومن آخر من مات من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبصرة
أنس بن مالك، وبالمدينة سهل بن سعد الساعدي ، ومكة أبو الطُّفَيْل، وباليمن أبيخ بن جمال
المازني ، وبالكوفة عبد الله بن أبي أوفى، وبالشام أبو قرصامة، وبخراسان بريدة الأسلمي.

ودخلت سنة مائة من التاريخ ولم يبق على وجه الأرض عين تطرف رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع أطراف الأرض، ثم توفي الحسن في سنة عشر ومائة. وكان أبو قتادة العدوي يقول عليكم بهذا الشيخ فوالله ما رأينا أحداً لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، وكانوا يقولون كنا نشبهه بهدى إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم في حلمه وخشوعه ووقاره وسكينة، فكان على شمائله، ونذرت امرأة بالبصرة نذراً إن فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسج ثوباً من غزلها وصفتة وتكسوه خير أهل البصرة، فرأت تمام نذرها فوفت بما نذرت، ثم سألت من خير أهل البصرة فقالوا الحسن. وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم وفتق الأسنة به ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره وكشف به قناعه. وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعه من أحد من إخوانه، فقيل له يا أبا سعيد إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فممن أخذت هذا، فقال عن حذيفة بن اليمان، قيل وقالوا لحذيفة بن اليمان نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لا نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أين أخذته، فقال خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسبقني وقال مرة فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير. وفي لفظ آخر كان الناس يقولون يارَسُولَ اللَّهِ ما لمن عمل كذا وكذا، يسألونه عن فضائل الأعمال، وكنت أقول يارَسُولَ اللَّهِ ما يُفْسِدُ كذا وكذا، فلما رأني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم. وكان حذيفة قد خصَّ بعلم المنافقين، وأُفرد بمعرفة علم النفاق، ويسرائر العلم وبقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة، ويرجعون إليه في العلم الذي خصَّ به، ويسألونه عن المنافقين وهل بقي منهم ممن نكر الله تعالى وأخبر عنهم أحد. فكان يُخبر بأعدادهم ولا يذكر أسماءهم. وكان عمر يستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيئاً من النفاق فبرأه منه، ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق فيخبر من ذلك بما يصلح مما أذن له فيه، ويستعفى مما لا يجوز له أن يخبر به فيعذرفي ذلك. وكان عمر رضى الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإن لم ير حذيفة لم يصل عليها. وكان حذيفة يُسمى صاحب السر. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئلوا عن علم يقول أحدهم تسألوني عن هذا وصاحب السر فيكم، يعني حذيفة.

روينا عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه لما حدث عن النبي صلى الله عليه وسلم فى فضل مجلس الذكر لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غنوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب، قال فالتفت إلى يزيد الرقاشى وزياد النُميرى ، فقال لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه، يقص أحدكم ويخطب على أصحابه ويسرد الحديث سرداً، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان، ونتدبر القرآن، ونتفقه فى الدين، ونَعُدُّ نِعْمَ الله تعالى علينا. وقد كان عبد الله بن رواحة يقول لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تعالوا حتى نؤمن ساعة، فيجلسون إليه فيذكرهم العلم بالله تعالى والتوحيد والآخرة ، وكان يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قيامه فيجتمع إليه الناس يذكرهم الله تعالى وأيامه، ويُفقههم فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فربما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم مجتمعون عنده فيسكتون، فيجلس إليهم ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه، ويقول صلى الله عليه وسلم بهذا أمرت وإلى هذا دعوت. وروى نحو هذا عن معاذ بن جهل رضى الله عنه، وقد كان يتكلم بهذا العلم وقد روينا هذا مفسراً فى حديث جُنْدَب. كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فسُمى علم الإيمان إيماناً كما سماه ابن رواحة، لأن علم الإيمان وصف الإيمان، والعرب تسمى الشئ بوصفه وتسميه بأصله، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثله تعلموا اليقين أى علم اليقين، وكما قال تعالى وابيضت عيناه من الحزن أى من البكاء ، فسماه بأصله لأن الحزن أصل البكاء.

وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج ذات يوم فرأى مجلسين، أحدهما يدهون الله تعالى ويرغبون إليه، والآخر يتفقهون فى الدين ويعلمون الناس، فوقف بينهما ثم قال ، أمّا هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأمّا هؤلاء فيعلمون الناس ويفقهون فى الدين وإنما بُعثت معلماً، ثم عدل إلى الذين يُفقهون الناس فى الدين ويذكرون الله تعالى فجلس معهم.

ويحكى عن بعض السلف قال دخلت المسجد ذات يوم فإذا بملقتين، إحداهما يقصون ويدعون ، والآخرى يتكلمون فى العلم وفقه الأعمال، قال فملت إلى حلقة الدعاء فجلست إليهم فحملتنى عيناي فنمت فهتف بى هاتف، أو قال لى شخص: جلست إلى هؤلاء وتركت مجلس العلم، أما لو جلست إليهم لوجدت جبريل صلى الله عليه وسلم عندهم. فحقيقة الذكر هو العلم بالله تعالى. الا تسمع إلى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم - أفضل الذكر قول لا إله إلا

اللَّهِ. وقال سبحانه وتعالى في تصديقه فاعلم أنه لا إله إلا الله ، وقال في مثله فاعلموا إنما أنزل بعلم الله، وأن لا إله إلا هو.

ثم إن العلم من النكر علم المشاهدة، والمشاهدة صفة عين اليقين، فإذا كُشِفَ غطاء العين شهدت معاني الصفات بآثارها وهو مزيد نور اليقين الذي هو كمال الإيمان وحقيقته، فهناك ذَكَرَتَ الموصوف بمشاهدة المنكور بنور وصفه. ألم تر إلى قوله تعالى وكانت أعينهم في غطاء عن نكرى، فمن كانت عينه في كشفٍ من نكره شهد المنكور، فعندما نكر ، ثم توجد حقيقة العلم بعد نسيان الخلق، كقوله تعالى وانكر ربك إذا نسيت، فحقُّ النكر نسيان ماسواه، كما أن حقيقة الإيمان الكُفْر بكل إله، كقوله تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله. وقال بعض أهل الحديث جازى رجل من إخوانى من أهل المعرفة، فقال قد وجدت من قلبى غفله فأريد أن تحملنى إلى مجلس من مجالس النكر، فقلت نعم، فسمى له مذكراً يتكلم فى علوم العامة. قال فحضرنا عنده واجتمع الخلق فأخذ فى شئ من القصص، ونكر الجنة والنار، فنظر إلى صاحبه فقال أليس زعمت أن هذا يذُكُرُ الله ويذُكُرُ ربه عز وجل، ويذُكُرُ أيامه، فقلت نعم هكذا هو عندنا، فقال ما أسمع إلا نكر الخلق، فأين نكر الله تعالى ؟ ثم توقف ساعة ينتظر منه ما يريد من علم المعرفة وما سمعه من شيوخه الصوفية، قال فليس إلا القصص والحكايات ، فالتفت إلى وقال قم بنا فإنه لا يسعنى الجلوس لأنه لا نية لى فى ذلك، فقلت أما أنا فاستحى أن أتخطى الناس فاصنع أنت ماترى، فقام يتخطى الناس حتى خرج. وقد روى الزهرى عن سالم عن ابن عمر أنه خرج من المسجد وقال ما أخرجنى إلا القصاص ولولاه ماخرجت.

وقال ضمرة قلت للثورى رحمه الله نستقبل القاص بوجهنا، فقال وأوا البدع ظهوركم. وقال ابن عون دخلت على ابن سيرين فقال ما كان اليوم من خير، فقلت نهى الأمير القصاص أن يقصوا. وحدثنا عن أبى معمر عن خلف بن خليفة قال رأيت سيّاراً أبا الحكم يستاك على باب المسجد وقاص يقص فى المسجد، فجاءه رجل فقال يا أبا الحكم إن الناس ينظرونك، فقال إنى فى خير مما هم فيه، أنا فى سنّة وهم فى بدعة. وقد فعل الأعمش أبلغ من ذلك دخل البصرة وكان فيها غريباً فنظر إلى قاص فى الجامع وهو يقول حدثنا الأعمش عن أبى إسحق، وحدثنا الأعمش عن أبى وائل، قال فتوسط الأعمش الحلقة ورفع يده وجعل ينتف شعر إبطه فبصر به القاص فقال ياشيخ، ألا تستحى، نحن فى علم وأنت تفعل هذا، فقال له الأعمش الذى أنا فيه أفضل من الذى أنت فيه، قال كيف، قال لائى فى سنّة وأنت فى كذب، أنا الأعمش

وما حدثتكم مما نقول شيئاً. فلما سمع الناس ذكر الأعمش انفضوا عن القاص واجتمعوا حوله وقالوا حدثنا يا أبا محمد.

وأخبرونا عن محمد بن أبي هرون أن إسحق حدثه قال صليت مع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه صلاة العيد، فإذا قاص يقص يلعن المبتدعة ويذكر السنة، فلما قضينا الصلاة وصرنا ببعض الطريق ذكر أبو عبد الله القاص، فقال ما أنفعهم للعامة وإن كان عامة ما يحدثون به كذباً. وأخبرت عن محمد بن جعفر أن أبا الحرث حدثه أنه سمع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول أكذب الناس القصاص والسؤال. وحدثونا عنه أيضاً أنه قال ما أحوج الناس إلى قاص صدوق لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر. قلت له أنت تحضر مجالسهم، قال لا. وروينا عن حبيب بن أبي ثابت عن زياد النُمَيْرِي قال أتيت أنس بن مالك وهو بالزاوية فقال لي قص، فقلت كيف والناس يزعمون أنه بدعة، فقال ليس شيء من ذكر الله تعالى بدعة، قال فقصصت وجعلت أكثر قصصي ودعائي رجاء أن يؤمن، قال فجعلت أقص وهو يؤمن. وقد كانوا يجعلون الدعاء قصصاً. وحدث يوسف بن عطية عن محمد بن عبد الرحمن الخزاز، قال فقد الحسن عامر بن عبد الله العنبري، فقال اذهبوا بنا إلى أبي عبد الله فاتاه الحسن، فإذا عامر في بيت قد لف رأسه وليس في البيت إلا رمل، فقال له الحسن يا أبا عبد الله لم ترك منذ أيام، فقال إنني كنت أجلس هذه المجالس فأسمع تخليطاً وتغليطاً بواني كنت أسمع مشيختنا فيما يروون عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إن أصفى الناس إيماناً يوم القيامة أكثرهم فكرة في الدنيا، وأكثر الناس ضحكاً في الجنة أكثرهم بكاء في الدنيا، وأشد الناس فرحاً في الآخرة أطولهم حزناً في الدنيا، فوجدت البيت أخلّي لقلبي وأقدر لي من نفسي على ما أريد منها. قال الحسن إما أنه لم يعن مجالسنا هذه، إنما عنى مجالس القصاص في الطرق الذين يخلطون ويغلطون ويقدمون ويؤخرون.

وقد قسم بعض العلماء المتكلمين ثلاثة أقسام فوصفهم بأماكنهم، فقال المتكلمون ثلاثة، أصحاب الكراسي وهم القصاص، وأصحاب الأساطين وهم المفتون، وأصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة. فمجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هي مجالس الذكر، وهي التي جاءت فيها الآثار. وفي الخبر إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها، قيل ومارياض الجنة، قال مجالس الذكر. وفي الحديث أن لله تعالى ملائكة سيّاحين في الهواء فضلاً عن كتاب الخلق، إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً ألا هلموا إلى بغيتكم، فيأتوهم حتى يجلسوا إليهم،

فيحفون بهم ويستمعون منهم، ألا فاذكروا الله واذكروا أيامه. وقال وهب بن منبه اليماني مجلسٌ يتنازع فيه العلم أحب إليّ من قدره صلاة، لعلّ أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها السنّة أو مابقي من عمره.

وسئل أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى عن مجالس الذكر وفضلها فرغب فيها، وقال رحمه الله وأي شيء أحسن من أن يجتمع الناس فيذكرون الله عز وجل ويعدون نعمه عليهم كما قالت الأنصار. وروينا عن عليّ كرم الله وجهه مايسرني أن الله تعالى أماتني طفلا وأبخلني الدرجات العلى من الجنة، قيل ولم، قال لأنه أحياني حتى عرفته. وقال مالك بن دينار خرج الناس من الدنيا ولم ينزفوا قطيب شيء فيها، قيل وماهو، قال المعرفة، ثم أنشأ يقول :

إن عرفان ذي الجلال لعزُّ * وضيأً وبهجة وسرور * وعلى العارفين أيضا بهاء
وعليهم من المحبة نور * فهنيا لمن عرفك إلهي * هو والله دهره مسرور

وقال يحيى بن معاذ الرازي: في الدنيا جنه من نخلها لم يشتق إلى شيء ولم يستوحش. قيل وماهي، قال معرفة الله تعالى. وقال آخر لم يخطئك من العارف إحدى ثلاث خلال تدل عليه، هيبه أو حلاوة أو أنس. وقال عالمنا أبو محمد سهل رحمه الله خرج العلماء والزهاد والعباد وقلوبهم مقلقة ولم يفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء، ثم تلا وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، يعنى مقلقة عن مفاتيح المعرفة وشهادة عين التوحيد. فمجالس الذكر هذه قديما كانت لأهل المعرفة وأصحاب معاملات القلوب وعلم الباطن، وهم علماء الآخرة وأهل الفقه في الدين. وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين الآية، فذكر الفقه الذي هو من صفة القلب، والخوف الذي هو سبب الفقه.

وعلم العقل داخل في علم الظاهر، والعلم بالله داخل في اليقين، كما روى في الخبر اليقين الإيمان كله. وقال الله تعالى وما يعقلها إلا العالمون. فجعل العقل وصفاً من العلم. وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعليم اليقين كما أمر بطلب العلم، فكان هذا الحديث مخصوصاً من ذلك، فيكون قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا اليقين للخصوص لأن اليقين مقام فوق العلم، ويكون قوله طلب العلم فريضة للعموم. وفي قوله تعلموا اليقين أمر بمجالسة الموقنين، لأن اليقين لا يظهر بذاته وإنما يوجد عند الموقنين، فقد أمرهم، ولم يقل تعلموا علم المعقول ولا علم الفتاوى.

وكان علماء الظاهر قديما يسمون المفتين، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم استفت قلبك

وإن أفتاك المفتون، فردّه إلى فقه القلب، وصرفه عن فتيا المفتين، فلولا أن القلب فقيه لم يجز أن يدلّه صلى الله عليه وسلم على غير فقيه، ولولا أن علم الباطن حاكم على علم الظاهر مادفعه من علوم أهل الظاهر وهم علماء الألسنة، إلى علم الباطن وهو علم أهل القلوب، ما ردّه إليه، ولا يجوز أن يرده من فقيه إلى فقيه دونه، كيف وقد جاء هذا الحديث بلفظة مؤكّدة بالتكرير والمبالغة فقال استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك، وهذا مخصوص لمن كان له قلب وألقى سمعه وشهد قيام شاهده وعرّى عن شهواته ومعهوده، لأن الفقه ليس من وصف اللسان. ألم تسمع قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها، فمن كان له قلب سميع بسميع، شهيد بشهيد، فقه به الخطاب فاستجاب لما سمع وأتاب، وذكر في قوله تعالى ليتفقهوا في الدين وصفين ظهرا عن الفقه، أحدهما النذارة، وهو مقام في الدعوة إلى الله عز وجل، ولا يكون النذير إلا مخوفاً، ولا يكون المخوف إلا خائفاً، والخائف عالم. والثاني الحذر، وهو حال من المعرفة بالله عز وجل والخشية له.

والفقه والفهم إسمان لمعنى واحد، والعرب تقول فقّحت بمعنى فهمت. وقد فضل الله تعالى الفهم عنه على العلم والحكمة، ورفع الإفهام على القضاء والأحكام، فقال تعالى ففهمناها سليمان، فآثره بالفهم عنه، وهو الذي فضّله به على حكم أبيه في القضية بعد أن أشركهما في الحكم والعلم. وقد فضّل الحسن بن علي رضي الله عنهما علماء الهداية إلى الله سبحانه وتعالى، الدالين عليه عز وجل، وسعاهم العلماء، وحققهم بالعلم في كلام روى لنا عنه منظوماً، وقد روينا أيضاً عن عليّ كرم الله وجهه ورضي عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم أنهم * على الهدى لمن استهدى أدلاء
ووزن كل أمرىء ما كان يحسنه * والجاهلون لأهل العلم أعداء

فمن كان عالماً يعلم، معلومه الله سبحانه وتعالى، فمن أفضل منه؟ وأي قيمة تُعرف له إذ كل علم قيمته معلومه، ووزن كل عالم علمه؟ وقد قال عبد الواحد بن زيد إمام الزاهدين كلاماً في هذا المعنى، يُفرد به العلماء بالله تعالى ويرفع طريقهم فوق كل طريق، أنشدونا عنه رحمه الله تعالى:

الطرق شتى وطرق الحق مفردة لا * والسالكون طريق الحق أفراد
يُعرفون ولا تُسلك مقاصدُهم * فهم على مهل يمشون قصّاد
والناس في غفلة عما يُراد بهم * فجلبهم عن سبيل الحق رقّاد

وروينا عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال لما مات عمر رضى الله عنه، إنى لأحب هذا الرجل، قد ذهب بتسعة أعشار العلم، فقليل له تقول هذا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون. فقال إنى لست أعنى العلم الذى تذهبون إليه، إنما أعنى العلم بالله عز وجل. وكان ابن مسعود يقول المتقون متوارون. وكذلك كان يقول المتقون سادة والعلماء قادة ومجالستهم زيادة، يعنى أن المتقين سادة الناس كما قال الله عز وجل إن أكرمكم عند الله أتقاكم، والعلماء قادة المتقين أى أئمتهم يقتفون آثارهم لأنه قال تعالى واجعلنا للمتقين إماما، ففضل العلماء على المتقين وجعلهم أئمة لهم، وصار المتقون أصحابهم، وأخير بالمزيد فى مجالستهم أى مجالستهم زيادة على مجالسة المتقين من غير العلماء، لأن كل عالم تقى وليس كل تقى عالما، كما روى بمعناه العلماء كثير، والحكاماء من العلماء قليل، والصالحون كثير، والصادقون من الصالحين قليل.

وسئل ابن المبارك من الناس؟ قال العلماء: قيل فمن الملوك؟ قال الزهاد: فمن السفلة؟ قال من يأكل بدينه. وقال فرقد السبخى للحسن رحمهما الله تعالى فى شئ سألته عنه، فأجابه يا أبا سعيد إن الفقهاء يخالفونك، فقال ثكلتك أمك فريدق! وهل رأيت بعينيك فقهاء؟ إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا، الراغب فى الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع، الكاف عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم. جمعا قوله هذا فى ثلاث روايات عنه مختلفة. فهذه صفات العالم بالله تعالى وهم العارفون.

وحُدثنا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال قلت لأبى بلغنا أنك كنت تختلف إلى معروف، أكان عنده حديث؟ فقال يا بنى كان عنده رأس الأمر، تقوى الله عز وجل. وقيل للإمام أحمد رضى الله عنه بأى شئ نُكِر هؤلاء الأئمة ووصفوا؟ فقال ما هو إلا الصديق الذى كان فيهم. قيل له وما الصديق؟ قال هو الإخلاص. قيل له فالإخلاص ما هو؟ قال الزهد. فأنطق ثم قال سلوا الزهاد، سلوا بشر بن الحارث.

وقد حُدثت عن بشر بن منصور فى عمارة رحمهما الله حكايات ظريفة. كان منصور بن عمارة من الواعظين المُذَكِّرين، ولم يكن العلماء فى وقته مثل بشر وأحمد وأبى شور يعنونه عالما. فقد كان عندهم من القصص. وكانت العامة تسميه عالما فحُدثت عن نصر بن على الجهضمي أنه مزح ذات يوم مزاحاً أفرط فيه، فقليل له تقول هذا وأنت من العلماء، فقال ما رأيت أحداً من العلماء إلا وهو يمزح، فقليل له قد رأيت بشر بن الحارث فهل سمعته يمزح، قال نعم كنت جالسا

معه ذات يوم فى بعض الدروب فجاء منصور بن عمّار يعدو، فقال يا أبا نصر الأمير قد أمر بجمع العلماء والصالحين فترى لى أن أختفى، فدفعه بشر وقال تنح عنّا لا يمر حمل شوك فيلقىك علينا فنحترق.

فهذا كان محل القصاص عند العلماء فيما سلف حتى ذهب أهل هذا العلم وجّهت مجالس الذكر وعلوم اليقين والمعاملات، إلا من عرف سيرة المتقدمين وطريقة السالفين الذين كانوا يفرقون بين مجالس الذكر وبين القصاص، ويميزون بين العلماء وبين المتكلمين، وبين علم اللسان وفقه القلب، وبين علم اليقين وعلم العقل، لأن الفرق بين العالم والقاص أن العالم يسكت حين يُسئل، فإذا سئل أجاب فيما يعلم بما هيا الله تعالى له وكشف، وينطق فيما أجراه الله عز وجل عليه وعرف، فإن كان الصمت أفضل أثر السكوت لعلمه الأفضل، فإن لم ير أهله تربص حتى يضعه فى أهله، وأهله من عرفه، وكان له نصيب من مشاهدته ووجده، وقال الله سبحانه وتعالى فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، ففى ذلك معنيان، أحدهما أن أهل الذكر هم العلماء بالله تعالى لقوله إن كنتم لا تعلمون، فلا يجوز أن يقول سلّوا من لا يعلم وهم جاهلون فيزدادوا جهلاً. والمعنى الثانى يدل على أن العلماء سكوت حتى يُسألوا، فإذا سئلوا يجب عليهم أن يجيبوا، لقوله تعالى لمن لا يعلم فاستلوا، فدّل أن مجالس الذكر هى مجالس العلماء التى وردت الأخبار بفضائلها. وفى تدبيره أن أهل الذكر هؤلاء المسئولون هم الذين وصل لهم القول لعلمهم يتذكرون، فلما وصل لهم المُفصل تذكروا عما وعد تعالى، فلما تذكروا علموا، فعندها أمر أن يُسألوا، ولذلك روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي للجاهل أن يستقر على جهله، ولا ينبغي للعالم أن يسكت على علمه، وقد قال الله تعالى فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخبر الذى رويناه عن طريق أهل البيت، العلم خزائن مفتاحها السؤال، فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة، السائل والمُستمع والمحِب لهم. وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول إن من يُفتى الناس فى كل ما يستفتونه لجنون. وقال الأعمش من الكلام كلام جوابه السكوت. وقال نو النون المصرى رحمه الله تعالى حُسن سؤال الصادقين مفتاح قلوب العارفين.

فأمّا القاص فهو الذى يبتدئ فيُقصّ الأخبار ويذكر القصص والآثار، ولذلك سُمى قاصاً، أى يتبع قصة من سلف، ومنه قوله تعالى وقالت لأخته قُصّيه أى تتبعى أثر موسى تعرفى قصته، وأخبرينى خبره. وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى من أذالة العلم أن يُنطق به قبل أن يُسأل عنه، وقال مرة من أذالة العلم أن يجيب عن كل ما يُسأل عنه، أى من إهانتة ووضعه، يقال

أشله هذا وأذلّ هذا، أى أرفع، ووَضَعَ. يقال إذا تكلم بالعلم قبل أن يُسأل عنه ذهب ثلثا نوره، وقد قال إبراهيم بن أدهم وغيره سكوت العالم أشد على الشيطان من كلامه، لأنه يسكت بـعلمٍ وينطق بـعلم، فيقول الشيطان انظروا إلى هذا سكوته أشد على من كلامه، ولذلك يقال الصمت زين العالم وستر الجاهل. وعن القاسم بن محمد أنه قال من إكرام المرء لنفسه أن يسكت على ما عنده حتى يُسأل عنه، ولقوله تعالى فاستلوا أهل الذكر فلوجب أن يجيبوا من حيث أمر أن يُسألوا. وقال صلى الله عليه وسلم من سُئِلَ عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار، فتوعّد عليه بالعقاب. وقد يكون الابتداء بالشيء من خفايا الشهوات، والشهوات من الدنيا. ووصف رجل لماك بن أنس فقال لا بأس به لولا أنه يتكلم بالشيء قبل أن يُسأل عنه. وقال مرة لا بأس به إلا أنه يتكلم بكلام شهر فى يوم. وقد قيل فى معنى ما نُكِرَ أن الكلام من الشهوات، قال هو الذى يبتدئ به قبل أن يُسأل عنه. ووصف بعضهم الأبدال فقال فى وصفهم أكّهم فاقّة وكلامهم ضرورة. وكانوا لا يتكلمون حتى يُسألوا عن شيء فيجيبوا، ومن لم يتكلم حتى يُسأل فليس يُعدّ لاغياً ولا متكلماً فيما لا يعنيه، لأن الجواب بعد السؤال كالفرض بمنزلة رد السلام. وكما قال ابن عباس رضى الله عنهما إني لأرى رد الجواب واجباً كرد السلام، وقد قال أبو موسى وابن مسعود رضى الله عنهما من سُئِلَ عن علم فليقل به، ومن لم يُسئل فليسكت، وإلا كُتِبَ من المتكلمين ومرق من الدين. ورويناه عن ابن عباس أيضاً.

قد كانوا يخافون من دخول التكلف عليهم فى كل شيء، ويعد بعضهم بالابتداء بالكلام من غير حاجة تدعو إليه، أو قبل سؤال عنه من غير أن يرى له موضعاً أو يجد له أهلاً، يَعْتَوْنَهُ من التكلف. وفى وصية ابن عباس لمجاهد لا تتكلم فيما لا يعنك فإنه أفضل ولا آمن عليك الخطأ، ولا تتكلم فيما يعنك حتى ترى له موضعاً، فرب متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فَعَنَتْ. وروى فى حديث الأنصارى الذى قالت له أمه عند موته هنيئاً لك الجنة، جاهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقُتِلت فى سبيل الله تعالى، فقال رسول الله وقال صلى الله عليه وسلم، وما يُدريك أنه فى الجنة، ولعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويبخل بما لا يُعنيه. ومن أظهر علماً من غير أن يُسأل عنه، ونشره فى غير أهله، فأنكر عليه، سُئِلَ عنه وكان عليه فيه مطالبة، لأنه قد تكلف إظهاره. فإن كان سُئِلَ عنه ثم تكلم فيه لم يكن عليه فيه مطالبة فيمن أنكر لأنه خرج جواباً على سؤال. ومن هذا كان السلف المتكلمون فى هذا العلم يسكتون حتى يُسألوا عنه. وكان أبو محمد يقول العالم يقعد فيسكت، ويرفع قلبه إلى مولاة فيفتقر إليه فى حسن توفيقه، ويسأله أن يلهمه الصواب، فأى شيء سُئِلَ عنه تكلم بما فتح له مولاة، فجعل العالم فى سكوته

ونظره إلى سيده محتاجاً إلى التوكل، ومنتظراً للوكيل في أي شيء يُجريه.

وقال بعضهم إنما العالم إذا سئل عن المسئلة كأنما تُقَلَعُ خمرسه. وقال رقبة بن مصقلة وغيره ليس العالم الذي يجمع الناس فيقصُ عليهم إنما العالم إذا سئل عن العلم كأنما يُسَعَطُ الخردل. وقد روينا أنه قاله الأعمش وقد كان محمد بن سوقة يسأله عن الحديث فيعرض عنه ولا يجيبه، فالتفت الأعمش إلى رقبة فقال له هو إذا أحمق مثلك إن كان يدعُ فائدته لسوء خلقه، فقال محمد بن سوقة ويحك إنما أجعله بمنزلة الدواء أصبر على مرارته لما أرجو من منفعتك. وقد روينا عن عليّ وابن مسعود رضِيَ اللهُ عنهما أنه مرَّ برجل يتكلم على الناس، فقال هذا يقول إعرفوني. وحدثنى بعض علماء خراسان عن شيخ له عن أبي حفص النيسابوري الكبير وكان هذا هناك نظير الجنيد ههنا، أنه قال إنما العالم الذي يُسأل عن مسئلة في الدين فيفتَمُ حتى لو جُرح لم يخرج منه دم من الفزع، يخاف أن يُسئل في الآخرة عما سُئل عنه في الدنيا، ويفزع أن لا يتخلص من السؤال إلا أن يرى أنه قد افترَضَ عليه الجواب لفقد العلماء. ومن ههنا كان ابن عمر رضِيَ اللهُ عنهما يسكت عن تسع مسائل ويجيب عن واحدة، ويقول تريدون أن تجعلونا جسرا تعبرون عليه في جهنم، تقولون أفتانا ابن عمر بهذا. وكان إبراهيم التيمي إذا سئل عن مسئلة يبكي ويقول لم تجد من تسأله غيري أو احتجتم إليّ؟ قال وجهدنا بإبراهيم النخعي أن نسنده إلى سارية، فأبى، وكان إذا سُئل عن شيء بكى، وقال قد احتاج الناس إليّ. وقد كان سفيان بن عُيينة تفرّد في زمانه بعلوم انفرد بها في وقته، وكان مع ذلك يضرب المثل لنفسه ويقول:

خَلَّتْ الدِيَارُ فَسُدَّتْ غَيْرَ مَسْوَدٍ * وَمِنَ الشَّقَاءِ تَفَرَّدِي بِالسَّوْدِ

وأما أبو العالية الرياحي فكان يتكلم على الاثنين والثلاثة، فإذا صاروا أربعة قام. وكذلك كان إبراهيم والثوري وابن أدهم رحمهم اللهُ تعالى يتكلمون على النفر، فإذا كثر الناس انصرفوا. وكان أبو محمد سهل رحمه اللهُ يجلس إليه خمسة أو ستة إلى العشرة. وقال بعض الشيوخ كان الجنيد رحمه اللهُ يتكلم على بضع عشرة، قال وما تم أهل الجلسة عشرون. وقد حدثت عن أبي الحسن بن سالم شيخنا رحمه اللهُ أن قوما اجتمعوا في مسجده فأرسلوا إليه بعضهم أن إخوانك قد حضروا ويحبون لقاءك والسماع منك، فإن رأيت أن تخرج إليهم فذاك. وكان المسجد على باب بيته ولم يكن يدخل عليه في منزله. فقال للرسول بعد أن خرج إليهم مَنْ هم، فقال فلان وفلان وسماهم، فقال ليس هؤلاء من أصحابي. هؤلاء أصحاب المجالس ولم يخرج، كأنه

رأهم عموماً لا يصلحون لتخصيص علمه فلم يُذهب وقته لوقتهم. وكذلك العالم خلوته تعز عليه، فإن وافق خصوص أصحاب أثرهم على خلوته فكان ذلك مزيداً لهم، وإن هو لم يوافق لم يؤثر على خلوته غيره فيكون منافعاً للبطالين. وقد كان ابن سالم أبو الحسن يخرج إلى إخوانه ممن يراه موضعاً لعلمه فيجلس إليهم ويؤاكرهم، وربما أمظهم إليه نهاراً أو ليلاً. ولعمري إن المذاكرة تكون بين النظراء، والمحاذية تكون مع الإخوان، والجلوس للعلم يكون للأصحاب، والجواب عن السؤال نصيب العموم. وكان عند أهل هذا العلم أن علمهم مخصوص لا يصلح إلا للخصوص، والخصوص قليل. ولم يكونوا ينطقون به إلا عند أهله، ويرون أن ذلك من حقه، وأنه واجب عليهم كما وصفهم على كرم الله وجهه في قوله حتى يُوبعوه أمثالهم ويذرعوه في قلوب أشكالهم.

وكذلك جاءت الآثار بذلك عن نبينا صلى الله عليه وسلم وعن عيسى عليه السلام: لا تصيخوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم. كونوا كالطبيب الرفيق الذي يضع الدواء في موضع الداء. وفي لفظ آخر من وضع الحكمة في غير أهلها جهل، ومن منعها أهلها ظلم. إن الحكمة حقاً، وإن لها أهلاً، وإن لأهلها حقاً، فاعط كل ذي حق حقه. وفي حديث عيسى صلاة الله وسلامه عليه: لا تعلقوا الجوهر في أعناق الخنازير، فإن الحكمة خير من الجوهر، ومن كرهها فهو شر من الخنزير. وكان بعض هذه الطائفة يقول نصف هذا العلم سكوت، ونصفه تدرى أين تضعه. وقد قال بعض العارفين من كلم الناس بمبلغ علمه، وبمقدار عقله، ولم يخاطبهم بقدر حدودهم، فقد بخسهم حقهم، ولم يقم بحق الله عز وجل فيهم. وكان يحيى بن معاذ يقول: أغرف لكل واحد من نهره، واسقه بكأسه. ونحن نقول بمعناه كل لكل عبد بمعيار عقله، ويزن له بميزان علمه، حتى تسلم منه ويبتنع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

وحدثني بعض أشياخنا من هذه الطائفة عن أبي عمران وهو المزين الكبير المكي، قال سمعته يقول لأبي بكر الكتاني وكان سمحاً بهذا العلم، بنولاً له لجميع الفقراء، فجعل أبو عمران يعاتبه وينهاه عن بذله له وكثرة كلامه فيه، إلى أن قال، أنا منذ عشرين سنة أسأل الله تعالى أن يُسبني هذا العلم، قال ولم، قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فسمعته يقول إن لكل شيء عند الله تعالى حرمة، ومن أعظم الأشياء حرمة الحكمة، فمن وضعها في غير أهلها طالبه الله تعالى بحقها، ومن طالبه خصمه.

وقد كان بعض السلف يقول إذا استند الرجل إلى سارية، أو أحب أن يُسال فلا تجلس

إليه، ولا ينبغي أن يُسأل. ولم يُر في مجالس أهل هذا العلم فيما سلف ثلاثون رجلاً ولا عشرون إلا نادراً، غير لزام ولا بوام، إنما كانوا من الأربعة إلى العشرة وبضعة عشر، وقد كان يجتمع في مجالس القُصَّاص والمُذَكِّرين والواعظين منون من عهد الحسن إلى وقتنا هذا. فهذا أيضاً من الفرق بينهما - أن العلم مخصص للقليل، وأن القصص عام لكثير. وقال بعض علمائنا كان في البصرة مائة وعشرون متكلماً في الذكر والوعظ، ولم يكن من يتكلم في علم المعرفة واليقين والمقامات والأحوال إلا ستة، منهم أبو محمد سهل والصبيحي وعبد الرحيم.

وقد قيل من لم ينتفع بسكوت العالم ينتفع بكلامه، أى ينبغي أن يتأدب بصمته وخشوعه وورعه، ويقتدى بيقينه في ذلك، كما يتأدب بنطقه ويقتدى بكلامه. على أنهم كانوا يقولون علم الظاهر من علم الملك، وعلم الباطن من علم الملكوت، يعنون أن ذلك من علم الدنيا لأنه يحتاج إليه في أمور الدنيا، وهذا من علم الآخرة لأنه من زادها، وهذا كما قالوه لأن اللسان ظاهر فهو من الملك، وهو خزانة العلم الظاهر، والقلب خزانة الملكوت وهو باب العلم الباطن، فقد صار فضل الباطن على الظاهر كفضل الملكوت على الملك، وهو الملك الباطن الخفي، وكفضل القلب على اللسان وهو الظاهر الجلي.

وقد كان بشر بن الحارث رحمه الله يقول «حدَّثنا وأخبرنا» باب من أبواب الدنيا. وقال مرة الحديث ليس من زاد الآخرة. وحدَّثنا بعض أشياخنا عن بعض أصحابه قال دفنا له بضعة عشر، ما بين قمطر وقوصرة، كُتِبَ لم يُحدِّث منها بشيء إلا ما سَمِعَ منه نادراً في الفرد. وكان رحمه الله تعالى يقول إنى أشتهى أن أُحدِّث، ولو ذهب عنى شهوة الحديث لحدِّثت، ثم قال أنا أجاهد نفسى منذ أربعين سنة. وقال إذا سمعت الرجل يقول «حدَّثنا وأخبرنا» فإنما يقول أوسعوا لى. وكان زاهداً عالماً، وقال هو وغيره إذا اشتبهت أن تحدِّث فلا تُحدِّث، وإذا لم تشته أن تحدِّث فحدِّث. وقد كانت رابعة العدوية رحمها الله تعالى قبله تقول للثورى رضى الله عنه نِعَمَ الرجل سفيان لولا أنه يُحب الحديث. وكانت تقول فتنة الحديث أشد من فتنة المال والولد، وقالت مرة لولا أنه يحب الدنيا، يعنى اجتماع الناس حوله للحديث. وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى يقول من تزوج أو كتب الحديث أو طلب معاشاً فقد رَكَنَ إلى الدنيا. وقال بعض هذه الطائفة كل من أدرك العلوم غير العلم بالله عز وجل فقد استدرك، والذي أدرك العلم بالله فقد تدرك، ثم تلا قوله تعالى لولا أن تداركه نعمة من ربه لُنْبَذَ بالعراء، أى تدرك بعلم المعرفة لَطُرِحَ

فى بُعد الهوى، والعرا البُعد. وعلم المعقول بُعدُ إلى جنب علم اليقين. وقال أيضاً فى فهم قوله تعالى ولولا أن ثبتناك لقد كُنت تركن إليهم، أى ثبتناك بالمعرفة، لقد كُنت تسكن إلى علوم العقل. وقال سهل بن عبد الله رحمه الله تعالى فى قوله عز وجل واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً، قال لسانا ينطق عنك لا عن سواك.

وفضل العلم بالله عز وجل، والعلم بالإيمان، وعلم اليقين على العلم بالأحكام والقضايا، كفضل المشاهدة على الخبر. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم ليس الخبر كالمعاينة، وفى لفظ آخر ليس المُخبر كالمُعاین. وقد روى عياض بن غنم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله عز وجل ألهاكم التكاثر، علم اليقين كراى العين. وفى هذا الخبر أن من خيار أمتى قوما يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم. ويبكون سراً من خوف عذابه، أقدامهم فى الأرض، وقلوبهم فى السماء، وأرواحهم فى الدنيا، وعقولهم فى الآخرة، يمشون بالسكينة، ويتقربون بالوسيلة. فالفتياهى الإخبار، والاستفتاء هو الاستخبار، ومنه قوله تعالى فاستفتهم، وقوله تعالى ويستفتونك أى يستخبرونك، فعلم الخبر قد يدخله الظن والشك، والمشاهدة ترفع الظن وتزيل الشك، كما قال تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى، فثبت الرؤية للقلب بالعين، ف رؤية القلب هو اليقين، وذو القلب هو الموقن، وقال النبى صلى الله عليه وسلم كفى باليقين غنى، ففى علم اليقين غنية عن جميع العلوم، لأنه حقيقة العلم وخالصه، وليس فى جميع العلوم غنى عن علم اليقين، ولأن الفقر بالشك، والحاجة إلى اليقين فى علم التوحيد وعلم الإيمان أشد من الفقر بالحاجة إلى علوم الفتيا وغيرها، فلذلك صار الغنى باليقين أعظم من الاستغناء بسائر العلوم، ففى هذا العلم مثل من فاتحة الكتاب إلى سائر القرآن، كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب تجزى من كل القرآن وليس القرآن كله يجزى من فاتحة الكتاب، فكذاك مثل العلم بالله عز وجل إلى العلم بما سواه، ففى العلم بالله تعالى عَوْض من كل العلوم، وليس فى سائر العلوم عوض من الله عز وجل، من حيث كان فى الله تعالى عَوْض به عن كل ما سواه. وكل علم موقوف على معلومه، فعلم اليقين معلومه الله تعالى، ففضله كفضل الله تعالى على ما سواه، وقد قال بعض الحكماء فى معنى ما ذكرناه من عَرَفَ الله تعالى فماذا جهل؟ ومن جهل الله تعالى فماذا عرف؟ فالعلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى

والدعوة إليه، والافتداء بهم في أعمال القلوب. وقد قال الله تعالى ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وكما قال تعالى ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، وكما أمر بالدعاء وأشرك معه أتباعه في الدعاء إلى الله تعالى، لا في البصيرة، فقال تعالى قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، ويحشرون يوم القيامة مع الأنبياء، كما قال تعالى أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، وكما قال تعالى وجرى بالنبيين والشهداء، ثم فسره فقال بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، وقد روينا معناه عن معاذ بن جبل، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد، أما أهل العلم فدكوا الناس على ما جاءت به الأنبياء، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيا فهم على ما جاءت به الرسل. وعلماء الدنيا يحشرون مع الولاة والسلطين، وقد قال بعض السلف العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون في زمرة السلطين.

وكان إسماعيل بن إسحق القاضي من علماء أهل الدنيا ومن سادة القضاة وعقلائهم، وكان مؤاخياً لأبي الحسن بن أبي الورد، وكان هذا من أهل المعرفة، فلما ولي إسماعيل القضاء هجره ابن أبي الورد، ثم إنه اضطر إلى أن يدخل عليه في شهادة، فضرب ابن أبي الورد يده على كتف إسماعيل القاضي، وقال يا إسماعيل علم أجلسك هذا المجلس، لقد كان الجهل خيراً منه. فوضع إسماعيل رداءه على وجهه وجعل يبكي حتى بله.

وعلماء الظاهر هم زينة الأرض والملك. وعلماء الباطن زينة السموات والملكوت، وعلماء الظاهر أهل الخبر واللسان، وعلماء الباطن أرباب القلوب والعيان. وقال بعض العلماء لما خلق الله تعالى اللسان قال هذا معقل خبري إن صدقتني نجيتني، ولما خلق الله تعالى القلب قال هذا موضع نظري إن صفا لي صافيتي. وقال بعض الخلف الجاهل ينجو بالعلم، والعالم ينجو بالحجة، والعارف ينجو بالجاه. وقال بعض العارفين علم الظاهر حكم، وعلم الباطن حاكم، والحكم موقوف حتى يجزى الحاكم يحكم فيه. وقد كان علماء الظاهر إذا أشكل عليهم العلم في مسألة لاختلاف الأدلة سألوا أهل العلم بالله، لأنهم أقرب إلى التوفيق عندهم، وأبعد من الهوى والمعصية، منهم الشافعي رحمه الله تعالى، كان إذا اشتبهت عليه المسئلة لاختلاف أقوال العلماء فيها وتكافؤ الاستدلال عليها، رجع إلى علماء أهل المعرفة فسألهم، قال وكان يجلس بين يدي

شيبان الراعي كما يجلس الصبي بين يديّ المكتب، ويسأله كيف يفعل في كذا وكيف يصنع في كذا، فيقال له مثلك يا أبا عبد الله في علمك وفقهك تسأل هذا البديوي، فيقول إن هذا وُفق لما علمناه. وكان الشافعي رحمه الله قد اعتلّ علةً شديدة، وكان يقول اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه، فكتب إليه المعافري من سواد مصر يا أبا عبد الله لست وإياك من رجال البلاء فنسأل الرضا، الأولى بنا أن نسأل الرفق والعافية، فرجع الشافعي رحمه الله عن قوله هذا وقال استغفر الله تعالى وأتوب إليه، فكان بعد ذلك رحمه الله يقول اللهم اجعل خيرتي فيما أحب.

وقد كان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين رضى الله عنهما يختلفان إلى معروف بن فيروز الكرخي رحمهم الله، ولم يكن يحسن من العلم والسُنن ما يحسنانه، فكانا يسألانه. وقد روى في الخبر قيل يا رسول الله، كيف نصنع إذا جأنا أمر لم نجد في كتاب الله تعالى، ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سلوا الصالحين واجعلوه شوري بينهم، ولا تقضوا فيه أمراً نونهم. وفي حديث معاذ رضى الله عنه فإن جأك ما ليس في كتاب الله تعالى ولا سنة رسول الله، قال أقضى فيه بما قضى الصالحون، فقال الحمد لله الذي وفق رسول رسوله، وفي بعضها أجتهد رأيي.

وحدثونا عن الجنيد قال كنت إذا قمت من عند سرى السقطي قال لي إذا فارقتني من تجالس، فقلت الحارث المحاسبي، فقال نعم خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه للكلام وردّه على المتكلمين. قال فلما وليت سمعته يقول جعلك الله صاحب حديث صوفياً، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث، يعني أنك إذا ابتدأت بعلم الحديث والآثر ومعرفة الأصول والسُنن، ثم تزهدت وتعبدت، تقدمت في علم الصوفية وكنت صوفياً عارفاً، وإذا ابتدأت بالتعبد والتقوى والحال شُفِلت به عن العلم والسُنن، فخرجت إما شاطحاً أو غالطاً، لجهلك بالأصول والسُنن، فأحسن أحوالك أن ترجع إلى العلم الظاهر وكتب الحديث، لأنه هو الأصل الذي تُفرع عليه العبادة والعلم، وأنت قد بويئت بالفرع قبل الأصل. وقد قيل إنما حرّموا الوصول، بتضييع الأصول، هو كتب الحديث ومعرفة الآثار والسُنن، فإذا أنت رُبدت إلى الأصل فقد انحطت عن مرتبة الناقدين. ونزلت من درجة العارفين، وفاتك مزيد اليقين والإيمان.

وقال سفیان الثوري رضى الله عنه كان الناس إذا طلبوا العلم عملوا، فإذا عملوا أخلصوا، فإذا أخلصوا هربوا. وقال آخر العالم إذا هرب من الناس فاطلبه، وإذا طلب الناس فاهرب منه. وقال أبو محمد سهل العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وقال نو النون يقول إجلس إلى من تكلمك صفته، ولا تجلس إلى من يكلمك لسانه. وقد كان الحسن قبله يقول جالس من تكلمك أعماله، ولا تجالس من يخاطبك مقاله. وقد كان طائفة يصحبون كثيراً من أهل المعرفة للتأدب بهم والنظر إلى هديهم وأخلاقهم إن لم يكونوا علماء، لأن التأديب يكون بالأفعال والتعلم يكون بالمقال. ومن أبلغ ما سمعت منهم في هذا المعنى ما قال بعض الحكماء وَعَظُّ واحدٍ لآلِفٍ بفعل، أنجح فيهم وأوقع من وَعَظِ ألفٍ لواحد بقول. وكان سهل يقول العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به، والعمل هباء إلا الإخلاص. وقال مرة الناس موتى إلا العلماء، والعلماء سكارى إلا العاملين، والعاملون مغرورون إلا المخلصين، والمخلص على وجَلٍ حتى يُختم له به.

ولم يكن العالم عند العلماء مَنْ كان عالماً بعلم غيره، ولا حافظاً لفقهِه سواء، هذا كان اسمه راوية وواعياً وحاملاً وناقلاً. وقد كان أبو حازم الزاهد يقول ذهب العلماء وبقيت علومٌ في أوعية سود. وقد كان الزهري يقول كان فلان وعاءاً للعلم، وحدثنى فلان وكان من أوعية العلم، ولا يقول كان عالماً. وكذلك جاء الخبر رُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. وكانوا يقولون حماد الراوية، يعنون أنه كان راوياً، وبخول الهاء في الاسم للمبالغة في الوصف كما يقال علامة ونسابة. وإنما كان العالم عندهم الغنى بعلمه لا بعلم غيره، وكان الفقيه فيهم هو الفقيه بفقه علمه وقلبه لا بحديث سواء. كما جاء في الأثر أى الناس أغنى، قال العالم الغنى بعلمه، إن أحتج إليه نفع وإلا اكتفى عن الناس بعلمه، لأن كل عالم بعلم غيره وإنما صار عالماً بمجموعه، فمجموعه هم العلماء، وكل فاضل بوصف سواء فموصوفه هم الفضلاء، فإذا تركهم وانفرد سكت فلم يرجع إلى علم نفسه يُختص به، فصار في الحقيقة موصوفاً بالجهل، واصفاً لطرائق أهل الفضل، موسوماً بعلم السمع والنقل، فمكّل العالم بعلم غيره مكّل الواصف لأحوال الصالحين، العارف بمقامات الصديقين، ولا حال له ولا مقام، فليس يعود عليه من وصفه إلا الحجة بالعلم والكلام، وسبَقَ العارفون بالله في الحجة بالأعمال والمقام، فمَنكّه كما قال الله تعالى ولكم الويل مما تصفون، وكقولُه عز وجل كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، لا

يرجع إلى بصيرة فيه بما اشتبه من ظلمات الشبه عليه مما اختلف العلماء فيه، ولا يتحقق بوجود منه فيه يجده عن حال ألبسها بوجوده، وإنما هو متواجد بوجود غيره، فغيره هو الواجد، وشاهد على شهادة سواء، فالسوى هو الشاهد، وقد كان الحسن يقول إن الله تبارك وتعالى لا يعبأ بصاحب رواية، إنما يعبأ بذى فهم ودراية. وقال أيضاً من لم يكن له عقل يسومه، لم تنفعه كثرة مروياته للحديث، وقد أنشدنا لبعض الحكماء فى معنى ذلك :

العلم علماً فمصنوع ومطبوع * ولا ينفع مجموع إذا لم يك مصنوع

كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وكان الجنيد رحمه الله يُنشد :

علم التصوف علم ليس يعرفه * إلا أخو فطنة بالحق معروف

وليس يعرفه من ليس يشهده * وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

لأن الكتب والمجموعات محدثة، والقول بمقالات الناس، والفتيا بمذهب الواحد من الناس، وانتحاء قوله، والحكاية له فى كل شىء، والتفقه على مذهب محدث، ثم يكن الناس قديماً على ذلك فى القرن الأول والثانى.

وهذه المصنفات من الكتب هادئة بعد سنة عشرين ومائة من التاريخ، وبعد وفاة كل الصحابة وعليّة التابعين، ويقال إن أول كتاب صنّف فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار، وحروف من التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن، جمع فيه سنناً منثورة مَبُوءة، ثم كتاب المؤطأ بالمدينة لمالك بن أنس رضى الله عنه فى الفقه، ثم جمع ابن عيينة كتاب الجوامع فى السنن والأبواب، وكتاب التفسير فى أحرف من علم القرآن، وجامع سفيان الثورى الكبير رضى الله عنه فى الفقه والأحاديث، فهذه من أول ما صنّف ووضع من الكتب بعد وفاة سعيد بن المسيب وخيار التابعين، وبعد سنة عشرين أو أكثر ومائة من التاريخ، فكان العلماء الذين هم أئمة هؤلاء العلماء من طبقات الصحابة الأربعة ومن بعد موت

الطبقة الأولى من خيار التابعين، هم الذين انقروا قبل تصنيف الكتب، وكانوا يكرهون كتب الحديث ووضع الناس الكتب لئلا يشتغل بها عن القرآن وعن الذكر والفكر، وقالوا احفظوا كما حفظنا، ولئلا يشتغل الناس عن الله تعالى برسم ولا رسم. كما كره أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعيية الصحابة تصنيف القرآن فى مصحف، وقالوا كيف نفع شياً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخشوا اشتغال الناس بالمصحف واتكالهم على المصاحف، فقالوا نترك القرآن يتلقاه الناس بعضهم من بعض تلقاً بالتلقين والإقراء، ليكون هو شغلهم وهمتهم وذكرهم، حتى أشار عليه عمر رضى الله عنه وبقيه الصحابة أن يجمع القرآن فى المصاحف، لأنه أحفظ له ويرجع الناس إلى المصحف، لما لا يؤمن من الاشتغال بأسباب الدنيا عنه، فشرح الله تعالى صدر أبى بكر رضى الله عنه لذلك، فجمع القرآن فى الصحف المتفرقة فى المصحف الواحد. وكذلك كانوا يتلقون العلم بعضهم عن بعض ويحفظونه حفظاً، هذا لطهارة القلوب من الريب، وفراغها من أسباب الدنيا، وصفائها من الهوى، وعلو الهمة وقوة العزيمة، وحسن النية. ثم ظهرت بعد سنة مائتين، وبعد تقضى ثلاثة قرون، فى القرن الرابع المرفوض، مصنفات الكلام وكتب المتكلمين بالرأى والمعقول والقياس، وذهب علم اليقين، وغابت معرفة الموقنين من علم التقوى وإلهام الرشد واليقين، فخلف من بعدهم خلف فلم نزل فى الخلوفاً إلى هذا الوقت، ثم اختلط الأمر بعد هذا التفصيل فى زماننا هذا فصار المتكلمون يدعون علماء، والقصاص يُسمون عارفين، والرواة والنقلة يُقال علماء من غير فقه فى دين ولا بصيرة فى يقين.

روينا عن ابن أبى عيلة قال كنا نجلس إلى عطاء الخراسانى بعد الصبح فيتكلم علينا، فاحتبس ذات غداة. فتكلم رجل من المؤذنين لا بأس به بمثل ما كان يتكلم به عطاء، فأنكر صوته رجاء بن أبى حيوة، فقال من هذا المتكلم، فقال أنا فلان، فقال اسكت فإنه يكره أن يُسمع العلم إلا من أهله. وكذلك كانوا يقولون أبى أهل العلم بالله تعالى أن يسمعوا هذا العلم إلا من أهله الزاهدين فى الدنيا، وكرهوا أن يسمعوه من أبناء الدنيا، وزعموا أنه لا يليق بهم.

واعلم أن العبد إذا كان يذكر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعه تقليد أحد من العلماء، وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحوا هذا المقام خالفوا من حملوا عنه العلم لمزيد من اليقين والإفهام. وقال ابن عباس رضى الله عنهما ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله

صلى الله عليه وسلم. وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أبي بن كعب، ثم خالف زيدا في الفقه وأبياً في القراءة. وقال بعض الفقهاء من السلف ما جانا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلناه على الراس والعين، وما جانا عن الصحابة فنأخذ به ونتركه، وما جانا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال. قالوا ونقول ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التقليد، ويقولون لا ينبغي للرجل أن يفتى حتى يعرف اختلاف الفقهاء، أى فيختار منها على علمه الأحوط للدين والأقوى باليقين، فلو كانوا يستحبون أن يفتى العالم بمذهب غيره لم يحتج أن يعرف الاختلاف، ولكان إذا عرف مذهب صاحبه كفاه، ومن ثم قيل إن العبد يُسأل غداً فيقال ماذا عملت فيما علمت، ولا يقال له فيما علم غيرك، وقد قال الله تعالى - وقال الذين أوتوا العلم والإيمان - ففرق بينهما، يدل به أن من أوتى إيماناً وبقينا أوتى علماً، كما أن من أوتى علماً نافعاً أوتى إيماناً، وهذا أحد الوجوه فى قوله سبحانه كَتَبَ فى قلوبهم الإِيمانَ وأَيَّدهم بروحٍ منه، أى قواهم بعلم الإِيمان، فعلم الإِيمان هو روحه، وتكون الهاء عائدة إلى الإِيمان. وكذا العالم الذى هو من أهل الاستنباط والاستدلال من الكتاب والسنة، فإنه أداة الصنعة وآلة الصُّنْع، لأنه نوتمييز وبصيرة، ومن أهل التدبر والعبرة. فأما الجاهل والعامى الغافل فله أن يقلد الطمأنينة، ولعالم عموم أيضاً أن يقلد عالمَ خصوص، وللعالم بالعلم الظاهر. أن يقلد مَنْ فوقه ممن جعل على علم باطن من أهل القلوب، لأن النبى صلى الله عليه وسلم رَدَّ من علم الأُسنة والفتيا إلى علم القلوب، ولم يردَّ أهل القلوب فى علمهم الذين يختصون به إلى المفتين، لأنهم يأخذون من المفتين فتياهم ثم يجدون فى قلوبهم حيكاً وحزاة، فيلزمهم فتيا القلب، لقوله استفت قلبك بعد قوله وإن أفتاك المفتون، مع قوله الإثم حزأ القلوب، إلى قوله ما حاك فى صدرك فدعة وإن أفتوك وأفتوك، ثم نرس معرفة هذا فجْهَل، فصار كل من نطق بكلام وصنعة غرَبَ على السامعين، لا يعرف حقه من باطله، سعى عالماً. وكل كلام مستحسن زُخْرِفَ رونقه لا أصل له يُسمى عالماً لجهل العامة بالعلم أى شئ هو، ولقلة معرفة السامع بوصف من سلف من العلماء كيف كانوا، فصار كثير من متكلمي الزمان فتنة المفتون، وصار كثير من الكلام والرأى والمعقول الذى حقيقته جهل كآته علم عند الجاهلين، فلا يفرقون بين المتكلمين والطمأنينة ولا يميزون بين العلم والكلام.

وقد قلنا إن خصوص الجهال يُشبهون بالعلماء فيشتبهون على مجالسهم فى الحال، فأطم

الناس في زمانك هذا أعرفهم بسيرة المتقدمين وأعلمهم بطرائق السالفين، ثم أعلمهم بالعلم أى شئ هو، وبالعالم من هو من المتعلم والمتعلم، وهذا كالفرض على طالبى العلم أن يعرفوه، لأنه لما قال صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضةً يجب عليهم أن يعرفوا أى شئ هو العلم حتى يطلبوه، إذ لا يصح طلب ما لا يُعرف، ثم وَجِبَ عليهم من هذا أن يعرفوا العالم من هو ليطلبوا عنده العلم إذ للعلم عَرَضٌ، ولا يقوم إلا بجسم فلا يوجد إلا عند أهله، كما قيل لعلَى كَرَمِ الله وجهه، وقيل له إنك خالفت فلانا في كذا، فقال خيرنا أتبعنا لهذا الدين، وكما قيل لسعد أن ابن المسيب يقرأ ما ننسخ من آية أو ننسأها، فقال إن القرآن لم ينزل على ابن المسيب ولا على أبيه، ثم قرأ أو ننسأها. فأعلم الناس في هذا الوقت وأقربهم من التوفيق والرشد أتبعهم لمن سلف وأشبههم بشمائل صالحى الخلف. كيف وقد روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل من أعلم الناس، فقال أعرفهم بالحق إذا اشتبهت الأمور. وقال بعض السلف أعلم الناس أعرفهم باختلاف الناس.

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول مُحدِّثان أحدثا في الإسلام، رجل نويدأى سوء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه، ومترف يعبد الدنيا، لها يغضب، ولها يرضى، وإياها يطلب، فإرضوهما إلى النار. وإن رجلا أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعو إلى دنياه وصاحب هوى يدعو إلى هواه، قد عصمه الله تعالى منهما، يجرى إلى السلف الصالح يسأل عن فعالهم ويقتص آثارهم لتعرض لأجر عظيم، فكذلك فكونوا. وكما روينا عن ابن مسعود رضى الله عنه وقد جاء مسندا، إنما هما اثنان، الكلام والهدى، فأحسن الكلام كلام الله تعالى، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم. ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها. إن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة. ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم. ألا كل ما هو آت قريب. ألا إن البعيد ما ليس بآت. وفي حُطبة النبى صلى الله عليه وسلم التى رويناها عن أبان عن أنس، طويى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، وجانب أهل الذمة والمعصية. طويى لمن ذل في نفسه، وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وعزل عن الناس شره. طويى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعت السنّة ولم يَغْدها إلى بدعة. وقال بعض الأدباء كلاماً منظوماً في وصف زماننا هذا كأنه شاهده:

ذهب الرجال المُقتدَى بفعالهم * والمنكبرون لكل أمر منكبر
 وبقيتُ في خَلْفِ بُزْكَى بعضهم * بعضاً ليدفع مِعْوَرُ عن معور
 أُبْنَى إنَّ من الرجال بهيمَةً * في صورة الرجل السميع المُبْصِرِ
 فَطِنًا بكل مُصِيبَةٍ في ماله * فإذا أُصيبَ بدينه لم يَشْعُرُ
 نسل الفقيه تكن فقيهاً مثله * من يسع في أمر بفقّه يظْفُرُ

وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول حُسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير من العمل. وقال في وصف زمانه باليقين وفي وصف زماننا بالشك، فقال إنكم في زمانٍ خيركم فيه المسارع في الأمور، وسيأتي بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف، يعنى لكثرة الشبهات. وقال حذيفة رضى الله عنه أعجب من هذا، قال إن معروفكم هذا منكر زمان قد مضى، وإن منكركم معروف زمان قد يأتى، وإنكم لن تزالوا بخير ما عرفتم الحق، وكان العالم فيكم غير مستخف. وكان يقول أيضا يأتى في آخر الزمان قوم يكون العالم فيهم بمنزلة الحمار الميت لا يلتفتون إليه، يستخفى المؤمن فيهم كما يستخفى المنافق فينا اليوم. المؤمن فيهم أذل من الأمة. وفي حديث على كرم الله وجهه يأتى على الناس زمانٌ ينكر الحق تسعة أعشارهم، لا ينجو منهم يومئذ إلا كل مؤمن نُومَةً، يعنى صموتا متغافلا، أولئك مصابيح العلم وأئمة الهدى وليسوا بالمذابيح البُدْر، يعنى المتكلمين كثيرا المتظاهرين بالكلام افتخارا. وفي خير يأتى على الناس زمان من عرف فيه الحق نجا، قيل فإين العمل، قال لا عمل يومئذ لا ينجو فيه إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق. وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه يأتى على الناس زمانٌ من عمل منهم بعُشر ما أمر به نجا. وفي بعضها بعُشر ما يعلم. وعن بعض الصحابة أنتم اليوم في زمان من ترك منكم عُشر ما يعلم هلك، ويأتى عليكم زمان من عمل فيه بعُشر ما يعلم نجا. وقال بعض الخلفاء يأتى عليكم زمان يكون أفضل العلم الصمت، وأفضل العمل النوم، يعنى لكثرة المنافقين بالشبهات، فصار الصمت للجاهل علما، ولكثرة العاملين بالشهوات فصار النوم عبادة البطال. ولعمري إن الصمت والنوم أدنى أحوال العالم وهما أعلى أحوال الجاهل.

وكان يونس بن عبيد يقول أصبح اليوم من يعرف السنة غريبا وأغرب منه من يعرفه، يعنى طريقة السلف، يقول فمن يعرفه عرف طريق من مضى، وهو غريب أيضا لأنه قد عرف غريبا.

وقال حذيفة المرعشى كَتَبَ إلى يوسف بن أسباط زَهَبَتْ الطاعة ومن يعرفها . وكان أيضا يقول ما بقى من يُؤنس به . وقال ما ظنك بزمانٍ مُذاكرة العلم فيه معصية، قيل ولم ذلك، قال لأنه لا يجد أهله . وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول إنكم لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم وقيل فيكم الحق فعُرف . ويل لكم إذا كان العالم فيكم كالأشاة النطيح . وقد كان للمتقدمين علوم يجتمعون عليها ويتفاوضونها بينهم قد نرست في زماننا . وكان للصالحين معان وطرائق يسلكونها ويسألون عنها قد ذهب في وقتنا . وكان لليقين والمعرفة مقامات وأحوال يتذاكرها أهلها ويطلبون أربابها قد عفت آثارها عندنا لقلّة الطالبين لها، ولعدم الراغبين فيها، وقُد العلماء بها، وذهاب السالكين في طُرُقها، منها طلب الحلال وعلم الورع في المكاسب والمعاملات، وعلم الإخلاص، وعلم آفات النفوس وفساد الأعمال، وعلم نفاق العلم والعمل، والفرق بين نفاق العلم والعمل، والفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس، وبين إظهار النفس شهوتها وإخفائها ذلك، والفرق بين سكون القلب بالله وسكون النفس بالأسباب، والفرق بين خواطر الروح والنفس، وبين خاطر الإيمان واليقين والعقل، وعلم خلائق الأحوال وأحوال طرائق العمّال، وتفاوت مشاهدات العارفين وتلوينات الشواهد على المريدين، وعلم القبض والبسط، والتحقيق بصفات العبودية والتخلق بأخلاق الربوبية، وتباين مقامات العلماء، إلى غير ذلك مما لا نذكره من علم التوحيد ومعرفة معانى الصفات، وعلوم المكاشفة بتجلى الذات، وإظهار الأفعال الدالة على معانى الصفات الباطنة، وظهور المعانى الدالة على النظر والأعراض والتقريب والأبعاد، والنقص والمزيد، والمثوية والعقوبة، والاختباء والاختيار، وقد ذكرنا من جميع هذه المعانى فصولاً، ورسماً جملاً وأصولاً، تنب على فروعها، وتدل على أشكالها، لمن وفق لتدبرها، وأريد بتنكرها، وجعل له نصيب منها .

وقال بعض علمائنا أعرّف للمتقدمين سبعين علماً كانوا يتحاورونها ويتعارفونها في هذا العلم، لم يبق منها اليوم علم واحد يُعرف . قال وأعرّف في زماننا هذا علوماً كثيرة من الأباطيل والدعاوى والغرور وقد ظهرت وسميت علوماً، لم تكن فيما مضى تُعرف، فهذا كالشراب الذى وصفه الله تعالى فقال يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . وكان الجنيد رحمه الله تعالى من قبله يقول عِلمنا هذا الذى نتكلم فيه قد طوى بساطه منذ عشرين سنة، وإنما نتكلم في حواشيه . وكان يقول أيضا قد كنت أجالس قوماً سنين يتحاورون في علوم لا أفهمها ولا أدري ما هي، وما بليت بالإنكار قط . كنت أتقبلها وأحبها من غير أن أعرفها . وكان أيضا يقول

كنا نتجارى مع إخواننا قديما فى علوم كثيرة ما تُعرف فى وقتنا هذا، ولا سألنى عنها أحد. وهذا باب قد أغلق ورُبِم.

ولما صنف شيخنا أبو سعيد بن الأعرابي كتاب طبقات النُساك وصف أوّل من تكلم فى هذا العلم وأظهره، ثم من بعده من البصريين والشاميين وأهل خراسان إلى أن كان آخرهم البغداديين، وقال آخر من تكلم فى هذا العلم صاحبنا جنيد القواريرى، وكانت له بصيرة فيه وحقيقة وحُسن عبارة، وما بقى بعده إلا من مجالسُته غيظ. وقال مرة أخرى ما بقى بعد جنيد إلا من يستحي من ذكره. وقد كان إمامنا أبو محمد سهل رحمه الله يقول بعد سنة ثلثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا، لأنه يحدث قوم يتصنعون للخلق، ويتزينون بالكلام، لتكون مواجيدهم لباسهم، وحليتهم كلامهم، ومعبودهم بطونهم. وقد كان حذيفة رضى الله عنه إذا سُئل أى الفتن أشد، فقال إن يُعرض عليك الخير والشرف فلا تدرى أيهما تأخذ لكثرة الشبهات. كما كان سهل يقول بعد سنة ثلثمائة لا يصح لأحد توبة لأنه يفسد خبرُهم وهم لا يصبرون عن الخبز، يعنى إن أوّل التوبة أكل الحلال. وقد روينا فى خبر يأتى على الناس زمان يضلون فيه دينهم فلا يعرفونه، يُصبح الرجل على دين ويُمسى على دين، يضل أمره على غير يقين، وتُسلب عقول أكثر أهل ذلك الزمان، وأوّل ما يُرفع عنهم الخشوع، ثم الإجابة ثم الودع، ويقال أوّل ما يُرفع من الناس الألفة.

ذُكر ما أحدث الناس من القول والفعل فيما بينهم مما لم يكن عليه السلف

كان الناس قديما إذا التقوا يقول أحدهم لصاحبه ما خبرك وما حالك، يعنون بذلك ما خبر نفسك فى مجاهدتها وصبرها، وما حال قلبك من مزيد الإيمان وعلم اليقين، ويريدون أيضا ما خبرك فى المعاملة لمولوك، وما حالك فى أمور الدنيا والآخرة، هل ازددت أم انتقصت، فيتذكرون أحوال قلوبهم، ويصفون أعمال علومهم، وينكرون ما وهب الله تعالى لهم من حسن المعاملة، وما فتح لهم من غرائب الفهم، فكان هذا من تعديد نِعَم الله تعالى عليهم ومن جميل شكرهم، ويكون مزيداً لهم فى المعرفة والمعاملة. وقد كان بعضهم يقول أكثر علومنا ومواجيدنا ما يعرفه بعضنا من بعض، وما يخبر به أحدنا أخاه إذا التقينا، فقد جُهل هذا اليوم فترك، فهم إذا تساطوا عن الخبر والحال إنما يريدون به أمور الدنيا وأسباب الهوى، ثم يشكو كل واحد مولاه الجليل سبحانه وتعالى إلى عبده الذليل، ويتسخط أحكامه، ويتبرم بقضائه، وينسى نفسه وما قدمت

يداه، فمثله كما قال تعالى ومن أظلم ممن نُكِرَ بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه، وكما قال تعالى إن الإنسان لربه لكنود، قيل كفور بنعمته يعدد المصائب وينسى النعم. كل ذلك جهالةً بالله تعالى وغفلةً عنه.

ومنه قولهم الآن كيف أصبحت وكيف أمسيت، هذا مُحدَث، إنما كانوا إذا التقوا قالوا السلام عليكم ورحمة الله. وفي الخبر من بدأكم بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه، وإنما حدَّث هذا في زمان الطاعون الذي كان يُدعى طاعون عمواس بالشام، من الموت الذريع. كان الرجل يلقي أخاه غُتوةً فيقول كيف أصبحت من الطاعون، ويلقاه عشيةً فيقول كيف أمسيت منه، لأن أحدهم كان إذا أصبح لم يمَس، وإذا أمسى لم يصبح، فبقى هذا إلى اليوم ونُسِيَ سببه، وكان من عرف حديثه من المتقدمين يكرهه. حدثونا عن أحمد بن أبي الحواري قال، قال رجل لأبي بكر بن عياش كيف أصبحت أو كيف أمسيت فلم يكلمه، وقال دعونا من هذه البدعة. قال وقلت لبعض السلف كيف أصبحت فأعرض عني، وقال ما كيف أصبحت، قل بالسلام. وروى أبو معشر عن الحسن رضى الله عنه إنما كانوا يقولون السلام عليكم سلِّمْتُ والله القلوب، فأما اليوم كيف أصبحت أصلحك الله، كيف أمسيت عافاك الله، فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة.

ومن ذلك ابتداء الرجل في عنوان الكتاب باسم المكتوب إليه، وإنما السُّنة أن يبتدى بنفسه فيكتب من فلان إلى فلان. قال ابن سيرين رحمه الله تعالى غبْتُ غيبةً فكتب إلى أبي فابتدأت باسمه، فكتب إلى يابني إذا كتبت إلى فابدأ باسمك في الكتاب، فإن ابتدأت باسمي قبل اسمك لا قرأت لك كتاباً ولا رددت إليك جواباً. وكتب العلاء بن الحضرمي رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدأ بنفسه، وكتب من العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقال أول من أحدثه زينو فعباه العلماء عليه وعنوه من إحداث بنى أمية. وقد بقى سنة هذا في كتب الخلفاء والأمرء إلى اليوم على نحو ما مضى، فهم يقدمون أسماعهم في كتبهم.

ومن الإحداث قول الرجل إذا جاء منزل أخيه يا غلام، يا جارية، فيه مخالفة لأمر الله عز وجل، وأمر رسوله عليه السلام. قال الله عز وجل لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها. قال أهل التفسير الاستئناس الدق أو التتحنج أو الحركة حتى يؤذن بذلك أن وراعها إنساناً. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء أحدكم منزل أخيه فليسلم ثلاثاً، فإن أذن له فليدخل وإلا فليرجع. وكان السلف يقرع أحدهم باب أخيه ثم يسلم ثلاثاً،

يقف بعد كل تسليمة هنيهة، فإنْ أُنزِلَ له دخل . وقد لا يحب صاحب المنزل أن تتخل عليه في ذلك الوقت لسببٍ عُنزٍ له، فيقول وعليكم السلام ورحمة الله، ارجعْ عافاك الله فإنني على شُغل، فيرجع عنه غير كاره لرجوعه، ولا يؤثر ذلك عليه في نفسه. وقد يكون قوله ارجعْ أحب إليه لأنه أفضل له رجاء الإجابة والتزكية، لقوله تعالى وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم، وربما رجع في اليوم مرتين أو ثلاثا بعد رد صاحبه له، وهو يعود لأن ذلك لم يؤثر في قلبه شيئا. وهذا لو قُبل ببعض الناس من أهل عصرنا هذا لكَرِهَهُ، ولعل أن لا يعود يومه ذلك، فأما العلماء فقد كان بعض الناس لا يستأذن عليهم إلا لِمُهُمْ لآبد منه، بل كانوا يقعون على أبوابهم وفي مساجدهم ينتظرون خروجهم لأوقات الصلاة إجلالا للعلم وهيبة للعلماء. وحدثونا عن أبي عبيد قال ما قرعتُ على عالم قط بابيه. كنت أجيءُ إلى منزله فأقعد على بابيه أنتظر خروجه من قِبَل نفسه، أتأوّل قول الله عز وجل ولوأنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم. وقد روينا مثلاً هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما في موضعه من العلم والشرف، أن المارَ كان يمرُّ به وهو قائم على باب منزل الرجل من الأنصار تُسْفى عليها الرياح، فيقول ما يجلسك ههنا يا ابن عم رسول الله، فيقول أنتظر خروج صاحب المنزل، فيخرج الرجل، فيقول، ابن عم رسول الله لو أرسلتَ إليّ لجنتك، فيقول لا، أنا كنت أحق أن أتيك، فيسأله عما يريد من حديث بلَغَهُ أنه يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن هو سمعه منه.

ومن ذلك استقصاء الرجل في المسئلة عن حال أخيه وخبره وقد كُرِه ذلك. تزوج سلمان الفارسي رضى الله عنه فلما دخل على أهله خرج إلى الناس من الغد، فقال له رجل كيف أنت يا أبا عبد الله، قال بخير أحمد الله تعالى، قال كيف حالك، كيف بت البارحة، وفي لفظ آخر كيف وجدت أهلَك، فغضب سلمان وقال لم يسأل أحدكم فيخفى المسئلة ويسأل عما وراء البيوت، يكفي أحدكم أن يسأل عن ظاهر الأمر. وأما سليمان بن مهران الأعمش فإن رجلا قال له في منزله، كيف أنت يا أبا محمد، قال بخير، قال كيف حالك، قال في عافية، قال كيف بت البارحة، فصاح يا جارية إنزلي بالفراش والمخاد فتنزلي بذلك، فقال افرشى واضطجعي حتى اضطجع إلى جنبك لنرى أخانا كيف بت البارحة. وكان يقول يلقي أحدهم أخاه فيسأله عن كل شيء حتى عن النجاج في البيت، ولو سأله درهما ما أعطاه. وكان من مضى من السلف إذا لقي أخاه لا يزيد على قوله كيف أنتم، أو حياكم الله بالسلاّم، ولو سأله شَطَرَ ماله قاسمَهُ.

ومن ذلك قول الرجل لأخيه إذا لقيه ذاهبا في طريق إلى أين تريد، أو من أين جئت، فقد كره هذا وليس من السنة ولا الأدب، وهو داخل في التجسس والتحسس، لأن التحسس في الآثار والتجسس في الأخبار، وهذا السؤال عن ذلك يجمعهما، وقد لا يحب الرجل أن يعلم صاحبه أين يذهب ولا من أين جاء، وقد كره ذلك مجاهد وعطاء، قالوا إذا لقيت أخاك في طريق فلا تسأله من أين جئت ولا أين يذهب، فلعله أن يصدقك فتكره ذلك، ولعله أن يكذبك فتكون قد حملته عليه.

وقد كانوا يكرهون بيع المصاحف وشراؤها، وكان بعضهم يبيعها أكره منه لشراؤها. وقد ابتدئ الناس علومها لم تكن تعرف فيما سلف، ومنها علم الكلام، والجدل، وعلوم المقاييس والنظر والاستدلال على سنن الرسول الله صلى الله عليه وسلم بأدلة الرأي والمعقول. ومنها إثارة علم العقل والرأي والقياس على ظواهر القرآن وعلى الأخبار. ومنها إظهار الإشارات بالمواجيد من غير علومها ولا بيان تفصيلها، وفي ذلك تحيير للسامعين وإضلال للعاملين، وإنما كان العلماء بهذا العلم يظهرهم علوم المواجيد ويخفون بالإشارة بالوجد، فيظهرون للناس ما ينفذ ويخفون ما يضر، ولأن المواجيد أحوال قلوبهم فكتمها أفضل، وعلومها أنصبه المريدين والعاملين، فأظهارها هو البغية لهم، فأظهروه وأخفوا وجدهم لأنه سر لهم، فسلموا من التصنع والدعوى، وأعطوا السامعين نصيبهم ومنعوا ما ليس لهم، فعدلوا في الوصفين معا ففضلوا في الحالين جميعا، فجعل هذا الآن فأظهر ضده، وكان إلى الضرر أقرب ومن السلامة أبعد، فمن لم يحسن التفصيل، ولم يرنق العبارة، فإنه يحسن الصمت فهو واسع إن من لم يتكلم بعلم على سنة، فسكوته أقرب له إلى الله تعالى، فمثله في ذلك كما قال الله عز وجل ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاه.

ومما ظهر إظهار علوم المعرفة بمعاني الرغبة لتمييزوا عن الفقراء تكبرا منهم فلا يجعلون جعلهم، فليصرف إليهم من الأسباب على قدر أنفسهم وأحوالهم، وهذا من أكبر أبواب الدنيا وأضره على مريد الأخرة وألطفه تمويها في الدين.

ومنها الكلام في التوحيد بمخالفة علم الشرع، وأن الحقيقة تخالف العلم، والحقيقة هي علم، وهي أحد طرق الشريعة، وعلم الشرع عنها، فكيف تتأفها وهي التي أوجبته، وإنما هي عزيمة وضيقة، وعلم الظاهر هو الرخصة والسعة، فمن تكلم في علم الباطن على غير قواعد

العلم الظاهر وأصوله فذلك من الإلحاد في الشريعة، والواجبة بين الكتاب والسنة. وقد قال بعض العارفين نظرت إلى هؤلاء الشاطحين فما وجدت إلا جاهلاً مغروراً، أو خاسئاً حَبُوراً، أو مستظهراً بلا شيء.

ومنها الكلام في الدين بالوساوس والخطرات عن غير ردٍّ مواجبتها إلى الكتاب والسنة، والواجب معرفة تفصيلها، ونفى ما لم يشهد له الكتاب والسنة منها، إذ في المواجيد ضلال وغرور، وفي المشاهدات باطل وزور، مع دعواهم المحبة وإنكارهم الصفة التي جاءت بها السنة وعن غير شهادة موصوف، وادعائهم المعرفة من غير تعرّف معروف.

ومما أحدثوا السجع في الدعاء والتقريب فيه، ولم يرد الكتاب به ولا نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة، بل كانوا ينهون عن الاعتداء في الدعاء ويجتنبون مجاوزة ما أخبر الله تعالى عن أوليائه من الأدعية الجامعة المختصرة المعروفة. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إياكم والسجع في الدعاء، حسَبُ أحدكم أن يقول اللهم إني أسالك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل. وفي الخبر سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطلهور. وسمع عبد الله بن مغفل ابنه يدعو بدعاء يغمق فيه، فقال يا بني إياك والحدث والاعتداء في الدعاء. وفي قوله عز وجل ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين، قيل في الدعاء فالاعتداء في الدعاء هو ترك ما أخبر الله عز وجل عن أوليائه الصالحين من الدعاء بالمغفرة والرحمة والتوبة، ومعنى ذلك من الدعاء المعروف والقول المشهور إلى التنتع والتعميق والتغريب والتدقيق. ويقال إن العلماء والأبدال لا يزيد أحدهم على سبع كلمات في الدعاء، ووجدت تصنيق ذلك في الكتاب أن الله تعالى ما أخبر عن عبادته في الدعاء في مكان واحد أكثر من سبع دعوات، وهي التي في آخر سورة البقرة، وإلا إنما يُخبر عنهم بالدعوتين والثلاث والأربع إلى الخمس في مواضع من الكتاب متفرقة، ومرّ بعض السلف بقاصٍ يدعو، ويسجع في دعائه ويتمق، فقال له وملك على الله تبالغ! أشهدُ لقد رأيت هيبياً العجمي يدعو وما يزيد على قوله اللهم اجعلنا جيّدين، اللهم لاتفضحنا يوم القيامة، اللهم وفقنا للخير، قال والناس يبكون من كل ناحية، وكنا نتعرف إجابة دعائه وبركته. وكان أبو يزيد الهسّطامي يقول سلّه بلسان الحكمة. وقال الحسن ادعُ بلسان الاستكانة والافتقار لا بالفصاحة والانطلاق.

ومما أحدثوه أخذ القرآن بالإدارة وتنازع الاثنين الآية، أو تلقى الرجلين للآيتين في مكان واحد بمنزله الاختلاس والنهبة، من غير خشوع للقرآن ولاهيبة، وقراءة القرآن تحتاج إلى حزن وسكون وخشوع، ومن ذلك أخذ المقرئ على الاثنين، وليته قام بقراءة الواحد لسهولة القلب، كما قيل لإبراهيم الحريبي إن فلانا يأخذ على الاثنين، فقال هاهو يحتاج اثنان أن يأخذا على واحد.

ومن البدع التلحين في القراءة حتى لا تلهتهم التلاوة، وحتى يجاوز إعراب الكلمة بمد المقصور وقصر الممدود، وإدغام المظهر وإظهار المدغم، ليستوى بذلك التلاحن، ولا يبالي بأعوجاج الكلم وإحالتها عن حقيقتها، فهو بدعة ومكروه استماعه. قال بشر بن الحارث سألت ابن داود الحريبي أمر بالرجل يقرأ فأجلس إليه، قال - يقول يطرب، قلت نعم، قال لا، هذا قد أظهر بدعته.

ومن ذلك التلحين في الأذان وهو من البغي والاعتداء فيه. قال رجل من المؤذنين لابن عمر رضى الله عنهما إنى لأحبك فى الله تعالى، فقال له لكنى أبغضك فى الله تعالى. قال يا أبا عبد الرحمن لم، قال لأنك تبغى فى أذانك وتأخذ عليه أجرا. وكان أبو بكر الأجرى رحمه الله يقول خرجت من بغداد وما يحل لى المقام بها، قد ابتدعوا فى كل شىء حتى فى القرآن وفى الأذان. وكان يعنى بذلك قراءة الإدارة والتلحين، وقدم علينا مكة فى سنة ثلاثين.

ومن جمل ما أحدث الخلف فخالطوا به سنن السلف، أنهم شذبوا فى أشياء كان السلف يسهلون فيها، وسهلوا أشياء كان السلف يشذبون فيها، فمثلهم فى ذلك كالخوارج شذبوا فى الصفات من الذنوب، وسهلوا فى الآثار والسنة وفى ترك مذهب الجماعة حتى فارقوهم. فمما شدد فيه الخلف مما كان السلف يسهلونه كتب الأحاديث من أنواع طرقها، وتتبع الغرائب من طرقاتها، وتحرى الألفاظ فيها، وقد قال ابن عون أدركت ثلاثة يرخصون فى المعانى، إبراهيم والشعبي والحسن رحمهم الله تعالى، وعن جماعة من علماء السلف والصحابة التوسعة فى معانى الأحاديث وإن لم يؤد ألفاظها، ومن ذلك تجريد الحروف وتحرى المقرئ الواحد فى جميع اختياره حتى كأنه فرض عليه.

ومن ذلك التدقيق فى القياس والنظر والتبحر فى النحو والعربية، كما قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى أعربنا فى الكلام فلم نكحن، ولحننا فى الأعمال فىا ليتنا لحننا فى الكلام وأعربنا فى الأعمال. وذكر العربية عند القاسم بن المخيمرة فقال أولها كبر وأخرها بغي. وقد قال بعض السلف النحو يذهب الخشوع من القلب، وقال آخر من أحب أن يزدري الناس كلهم

وشدّدوا فى الطهارة بالماء وتطّيف الثياب وكثرة غسلها من عرق الجنب وإبس الحائض، ومن أرواث ما يؤكل لحمه وأبواله، وغسل اليسير من الدم ونحو ذلك، وكان السلف يُرخصون فى هذا كله. ومما سهّلوه مما كان السلف يشدّدون فيه أمر المكاسب وترك التحريم فيها، والكلام فيما لا يعنى والخوض فى الباطل، والغيبة والنميمة والاستماع إليها، والعقد على البلاغات، وسوء الظن لأجلها وهو اشتراك فى الغيبة والنميمة. وكل بلاغة تزيد وتنقص إن كان شرا ازديت فيه، وإن كان خيرا نقصت منه.

وسهّلوا فى النظر إلى الزور واللغو ومجالسة البطالين، والمشى فى أسباب الهوى، والتعصب، وشدة الحرص على الدنيا، وهذا كله كان السلف يشدّدون فيه. ومما أحدثوا دخول النساء الحمام من غير ضرورة، وبخول الرجل بغير منزر وهو فسق. وسئل إبراهيم الحري رحمه الله تعالى عن يشرب النبيذ ولايسكر أئصلى خلفه، قال نعم، قيل فمن دخل الحمام بغير منزر، فقال لائصلى خلفه، هذا لأن شرب النبيذ يُختلف فيه إذا لم يُسكر، وبخول الحمام بغير منزر مُحرم بإجماع. وكان بعض العلماء يقول يحتاج داخل الحمام إلى منزرين، منزر لوجهه ومنزر لعورته، وإلا لم يسلم فى دخوله. وكان ابن عمر يقول الحمام من التعميم الذى أحدثوه، ومن المنكر فى الحمام تولّى القيم لعورة الرجل المسلم فى الإطلاجا بالتؤرة.

وقد كان من هدى العلماء فى قعودهم أن يجتمع أحدهم فى جلسته فينصب ركبتيه، ومنهم من يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتيه. كذلك كان شمائل كل من تكلم فى هذا العلم خاصة من عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن زمن الحسن البصرى وهو أوّل من أظهر هذا العلم وفتق الألسن به، إلى وقت أبى القاسم الجنيد قبل أن تظهر الكراسى. وكذلك روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقعد القرفصاء ويحتبى بيديه. وفى رواية أخرى أنه كان يقعد على قدميه ويجعل مرفقيه على ركبتيه. وأوّل من قعد على كراسى من أهل هذا العلم يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى بمصر. وتبعه أبو حمزة ببغداد، فعاب الأشياخ عليهما ذلك، ولم يكن ذلك من سيرة العارفين الذين يتكلمون فى علم المعرفة واليقين، إنما كان يجلس مترعبا النحويون واللغويون وأبناء الدنيا من العلماء المفتين، وهى جلسة المتكبرين، ومن التواضع الاجتماع فى الجلسة.

ذكر تفصيل العلوم معروفها وقديمها ومحدثها ومتكبرها

إعلم أن العلوم تسعة، أربعة منها سُنَّةٌ معروفة من الصحابة والتابعين، وخمسة محدثة لم تكن تُعرف فيما سلف، فأما الأربعة المعروفة: فعلم الإيمان، وعلم القرآن، وعلم السنن والآثار، وعلم الفتاوى والأحكام، وأما الخمسة المحدثّة: فالنحو، والعروض، وعلم المقاييس والجدل في الفقه، وعلم المعقول بالنظر، وعلم علل الحديث وتطريق الطرقات فيه وتعليل الضعفاء وتضميف النثقة للآثار، فهذا العلم من المحدث إلا أنه علم لأمله فيسمعه أصحابه منهم. وقد كانوا يرون القصص بدعة وينهون عنه ويكرهون مجالسة القصّاص. وقال بعض العلماء نِعْمَ الرجل فلان لولا أنه يَقْصُر. وقال بعض هذه الطائفة مثل أصحاب الحكايات في أهل المعرفة مثل القصّاص في الفقهاء، وقال آخر مثل القصّاص في العلماء مثل أهل السواد في أهل المدن. فأنما أكل الدنيا بالدين وأخذها على الصلاح، وبيع العلم بالدنيا والتصنّع والتزّين للعموم، فمن قبيح ما أحدث، وهو أظهر من أن يُدَلَّ على فساده عند من عرف ظاهراً العلم، وقد سُمي هؤلاء الجاهلون بالعلم في زماننا هذا علماء، وجعلهم الناقصون عن الفضل فضلاء، لقلّة معرفتهم بطريق المتقدمين، وعدم بصيرتهم بحقيقة علم الدين.

واعلم أن الكلام ينقسم عندنا سبعة أقسام، العلم منه قسم واحد وسائر الستة لغو مُطْرَح، يلتقطه من لا يعرفه ولا يفرق بين العلم والجهل. والعرب تقول لكل ساقطة لاقطة، ولكل قاتلة ناقلة، فالسنة إفك وسفّه، وخملاً وظن، وزخرف ووسوسة، فهذه أسماؤها عند العلماء يفصلون ذلك بما فصل الله تعالى لهم من بيانه واستحفظهم من كتابه وجعلهم شهداء على دينه وعباده، فالقسم السابع من الكلام هو ما عدا هذه الستة ولم يقع عليه اسم منها مذموم، فهو علم وهو نص القرآن والسنة، أو ما دلّ عليه واستنبط منهما أو وجد فيهما اسمه ومعناه من قول وفعل. والتأويل إذا لم يخرج عن الإجماع داخل في العلم. والاستنباط إذا كان مستودعاً في الكتاب يشهد له المجمل ولا يتأنيه النص فهو علم. وقد كان ابن مسعود رضى الله عنه يقول أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم، وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى. وقد جمع الله تعالى بين رونق العقل ومُتعة الدنيا بتسمية الزخرف فقال تعالى وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً، وكما قال زخرفاً من القول غروراً، فذهب الجاهل بالاستحسان لزخرف القول من المأمور من غلّ الدنيا، كمتعة الجاهل من أبناء الدنيا بزخرف الذهب ذاهبا عن حقيقة الأمر.

والزخرف ما يُموه على الذهب فيشبهه به، يحسبه الجاهل والصبى عين الذهب، كذلك الزخرف من القول ما يُموه ويشبهه على العلم، يحسبه المستمع من الجهال علما، فكذاك جمع بينهما فى التسمية الزخرف. وقد قيل إن الزخرف هو الذهب فعلى هذا شبه قول الغرور بالذهب الذى يذهب بقاؤه وتقل حقيقته عند الربانيين وأهل الحقيقة الزاهدين، إذ شبهه الأنبياء والصدّيقون كالحجر والمدر.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول تركوا الطم وأقبلوا على الغرس، ما أقل العلم فيهم والله المستعان. وقال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه لم يكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم، ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال فى أكثر الأمور، وأدركتهم يقولون مُستحب ومكروه. وكان مالك كثير التوقف فى الأجوبة إذا سُئل ويكثر أن يقول لا أدري، سأل غيرى. وقال رجل لعبد الرحمن مهدي ألا ترى إلى قول فلان فى العلم حلال وحرام وقطعه فى الأمور بعلمه، يعنى رجلا من أهل الرأى، وإلى قول مالك إذا سُئل أحسبُ أحسب، فقال عبد الرحمن وملك، قول مالك «أحسب أحسب» أحب إلى من قول فلان أشهد أشهد. وكان هشام بن عروة يقول لا تسألوهم اليوم عما أحدثوا فإنهم قد أخذوا له جوابا، ولكن اسألوهم عن السنن فإنهم لا يعرفونها. وكان الشعبي رحمه الله تعالى إذا نظر إلى ما أحدث الناس من الرأى والهوى يقول لقد كان القعود فى هذا المسجد أحب إلى مما يعيدل به، فمنذ صار فيه هؤلاء المرأون فقد بفضوا إلى الجلوس فيه، ولأن أتعذ على مزيلة أحب إلى من أن أجلس فيه. وكان يقول ما حدثوك عن السنن والآثار فخذ به، وما حدثوك عما أحدثوا من رأيهام فامخط عليه، وقد قال مرة فبلُ عليه. وقد كان السلف يستحبون العى والبلى عن علوم المعقول، وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان إذ قرئته بالحياء، فقال الحياء والعى شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق. وقال عليه السلام أبغض الخلق إلى الله عز وجل البليغ الذى يتخلل الكلام بلسانه كما يتخلل الباقر الخلا بلسانها، يعنى الحشيش الرطب. وقال فى حديث آخر العى عى اللسان لاعى القلب. وقال إن الله عز وجل كره لكم البيان كل البيان فصار الفقه إنما هو فقه القلب عن الرب سبحانه وتعالى، وصار فقه اللسان بالبيان إنما هو عى القلب عن الشهادة والإيقان. وعى اللسان وطول الصمت الذى كان يستحبه السلف هو اليوم عيب. ومن المتكلمين من لا يُعرف من كلام البدع، وعلم المنافقين الذى ذمه القدماء هو اليوم سنه، وأهل النطق به هم العلماء اليوم. ولقد صار المعروف منكراً والمنكر

معروفاً، وصارت السنّة بدعة، والبدعة سنة، وكذلك جاءت به الأخبار فى وصف علماء آخر الزمان.

وفى الخبر المشهور أن الله تعالى يبغض الثرثارين المتشدقين، فمن غلب عليه هذا الوصف فكان متشدقاً بليغا فى علم الرأى والمعقول عيى القلب عن مشاهدة اليقين وعلم الإيمان كان إلى النفاق أقرب ومن حقيقة الإيمان أبعد. وقد كان أبو سليمان الداراني يقول لا ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخيرات أن يعلمه حتى يسمع به فى الأثر فيحمد الله تعالى إذا وافق ما فى نفسه. وقال بعض العارفين ما قبلت خاطراً من قلبى حتى يقيم لى شاهدي عدل من كتاب وسنة. وكان إمامنا أبو محمد سهل رحمة الله تعالى يقول لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه هذه الأربع - أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهى من الظاهر والباطن، والصبر على ذلك حتى الممات. وقد كانوا يعيبون على من تكلم بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس بغير ذكر الله تعالى، وكانوا يخرجون المتحدثين من المساجد فلا يبقى فيها إلا مُصلّ أو ذاكر لله تعالى. وقد كان السلف يستعظمون يسير الحديث فى الدين ودقائق البدع فى الإسلام لعظم الإيمان والسنّة فى قلوبهم ولعرفتهم بحقيقة المعروف. قال عبد الله بن مغفل لابنه وقد سمعه يقرأ خلف الإمام يا بنى إياك والحدّث، إياك والحدّث. وقال سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع فى كلامه - هذا الذى يبغضك إلى، لا قضيت حاجتك أبداً. وكان قد جاءه يسأله حاجة له. وقال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوتى امرؤ شراً من طلاقة فى لسانه. وقال صلى الله عليه وسلم لابن رواحة حين سجع سمعه فوالى بين ثلاث وقال - إياك والسجع يا ابن رواحة. فكان السجع ما زاد على كلمتين. وكذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى أمره بديّة الجنين لما قال كيف ندّى من لا شرب ولا أكّل ولا صاح ولا استهل فمثل هذا بطل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسجع كسجع الأعراب.

وروينا عن مروان لما أحدث المنبر فى صلاة العيد عند المصلّى قام إليه أبو سعيد الخدرى فقال يا مروان ما هذه البدعة، فقال إنها ليست بدعة، هى خير مما تعلم. إن الناس قد كثروا فأردت أن يبلغهم الصوت. قال أبو سعيد رضى الله عنه ولا تاتون بخير مما أعلم أبداً، والله لا صليت وراعتك اليوم. فانصرف ولم يصل مع صلاة العيد. فالخطبة على منبر فى صلاة العيد

وخطبة الاستسقاء بدعة، وكان عليه السلام يخطب فيهما على الأرض متوكئا على قوس أو عصا.

وردى أن عمر رضى الله عنه أخر صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأعتق رقبة، وفعله عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أيضا فأعتق رقبة استنانا بعمر وهو جده لأمه. وروينا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه أخر صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقتين، وفي الخبر لاتزال أمتى على مُسْكة من دينها ما لم يؤخروا صلاة المغرب إلى اشتباك النجوم تشبيهاً باليهودية، ولم يؤخروا صلاة الصبح إلى افتراق النجوم تشبيهاً بالنصرانية. وقال سفيان الثوري رحمه الله ويوسف بن أسباط لا تقلد دينك من لا دين له. وقال وكيع لأن أزننى أحبّ إلى من أن أسأل مبتدعا عن دينى.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قد أكثر عن عبيد الله بن موسى العيسى ثم بلغه عنه أدنى بدعة، قيل أنه كان يقدم عليا على عثمان وقيل بل ذكر معاوية بسوء، فأنصرف أحمد ومزق جميع ما حمل عنه ولم يحدث عنه شياً. وقيل له مرة يا أبا عبد الله أوكيع أشبه بالسلف أم عبيد الله، فقال وكيع وإن زنى. وحدثونا عن إبراهيم الحربي قال كتبت عن علي بن المديني رضى الله عنه جُملاً لله تعالى على أن لا أحدث عنه بحرف، قيل ولم يا أبا اسحق، فنكر صلاته خلف مبتدع. وكان رحمه الله تعالى يقول صحبت الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل العربية واللغة سبعين سنة ما سمعت هذه المسائل التي أحدثت في هذا الوقت من أحد منهم قط، يعنى الاسم والمسمى ونحو ذلك. وقال وأخرج على من كان من أهل الكلام والجدل أن يحضر مجلسى أو يسألني عن شيء فإنه لا علم لى بالكلام، ولا أنا أحسنه، ولا أقول بأهله، ولو عرفت أحدا منهم ما كلمته ولا أجبتة عن شيء. وهجر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أبا ثور صاحب الشافعي لما سئل عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى خلق آدم على صورته، قال إن الهاء عائدة على آدم، فغضب وقال ويله، وأي صورة كانت لآدم يخلقه عليها، ويله. يقول إن الله تعالى خلق على مثال، فأى شيء يعمل في الحديث المفسر إن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن، فبلغ ذلك أبا ثور فجاه واعتذر وحلف أنه ما قلت عن اعتقاد وإنما هو رأى رأيته، والقول ما قلت وهو مذهبي. وهجر أيضا حارثا المحاسبى رحمه الله تعالى فى رده على المبتدعة وكان من أهل السنّة، فقال أين ترد عليهم وقد حكيت قولهم،

وأيضاً فإنك تحملهم على التفكير والرأى فيما قلت فيكون سبباً لرد الحق بالباطل. وهجر أيضاً يحيى بن معين فى كلمة تكلم بها وهو قوله لو أعطانى الشيطان شيئاً أخذته.

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه ليس من السنة أن تجادل عن السنة ولكن تخبر بها، فإن قُبل منك وإلا فاسكت. وقال لعبد الرحمن بن مهدي رضى الله عنه إن فلانا يردّ عن المبتدعة، فقال بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا لا، بل بالمعقول، قال بثسما صنع، ردّ بدعة ببدعة. وحدث زيد بن أحزم عن وهب بن جرير قال سمعت شعبة رحمه الله تعالى يقول أتيت الحارث العكلي فقلت ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إذا تبع أحدكم جنازة فلا يجلس حتى توضع؟ قال رأيت إن جننا ولم يحفر له ينبغى لنا أن نقوم قياماً، فحيث قال لي رأيت تركته. وروى محمود بن غيلان أيضاً عن وهب أيضاً عن شعبة، قال أتيت المنهال بن عمرو أسأله عن حديث، فسمعت من منزله صوت طنبور فرجعت ولم أسأله، ثم ندمت بعد ذلك فقلت هلاً سألته فمضى كان لا يعلم به.

ومما أحدثوا البيع والشراء على الطريق، وكان الورعون لا يشترون شيئاً ممن قعد يبيعه على طريق. وكذلك إخراج الرواشن من البيوت، وتقديم العضaid بين يدي الحوانيت إلى الطريق مكروه. ومما كرهه أهل الورع البيع والشراء من الصبيان لأنهم لا يملكون وكلامهم غير مقبول. وحدثت عن أبي بكر المروزي أن شيخاً كان يجالس الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ذات هنية، فكان أحمد يقبل عليه ويكرمه، فبلغه عنه أنه طين حائط داره من خارج، قال فأعرض عنه فى المجلس فاستنكر الشيخ ذلك، فقال يا أبا عبد الله بلغك عنى حدث أحدثته، قال نعم طينت حائطك من خارج، قال ولا يجوز، قال لا لأنك قد أخذت من طريق المسلمين أنملة، قال فكيف أصنع، قال إما أن تكشف ما طينته وإما أن تهدم الحائط وتؤخره إلى وراء مقدار إصبع ثم تطينه من خارج، قال فهدم الرجل الحائط وأخره إصبعا ثم طينه من خارج، قال فأقبل عليه أبو عبد الله كما كان.

ومما كرهه السلف طرح السنور والدابة على المزابل فى الطرقات فيتأذى المسلمون بروائح ذلك، وكان شريح وغيره إذا مات لهم سنور دفنوها فى نورهم. ومثله إخراج الميازيب وصبها إلى الطرقات. وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وأهل الورع يجعلون ميازيبهم إلى داخل نورهم. وقال إبراهيم النخعي رحمه الله كان أحدهم يكذب مرتين ولا يشعر، يقول لاشىء إلا شىء

ليس بشيء، يعنى قول الناس للشيء اليسير الذى لا يوصف بكثير لاشيء، فاستعظم هذا وراءه كذبا مرتين. وروينا عن عمر رضى الله عنه أنه قال لعوانه كنتُ أرثى لك من العمى فصرت الآن أغبطك به، قال وكيف، قال صرت لاترى بعينيك مبتدعاً كان بالمدينة. وقيل لقتادة تود لو أنك بصير فقال لا، على من كنت أفتح عيني؟ بل لو كان فى وقت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنظر إليهم. وحدثونا عن الفضل بن مهران قال قلت ليحيى بن معين - أخ لى يقعد إلى القُصَّاص، فقال أنه، فقلت لايقبل، قال عظه، قلت لايقبل، أأجره؟ قال نعم. قال فأتيت الإمام أحد بن حنبل فنكرت له نحو ذلك، فقال قل له يقرأ في المصحف وينكر الله تعالى فى نفسه ويطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت فإن لم يفعل، قال بلى إن شاء الله تعالى فإن هذا الاجتماع محدث، قلت فإن لم يقبل أأجره؟ فتبسّم وسكت. وسأل رجل بشر بن الحارث رحمه الله تعالى عن مسألة من علم القلوب فتوقف ثم أجابه، ثم سأله مسألة أخرى من علم المعاملات، فسكت ونظر إليه، ثم قال من تجالس من الناس، فقال منصور بن عمار وابن السّمّاك، فقال ألتسحى تسالنا عن علم القلوب ثم تجالس القُصَّاص، قال وأعرض عنه حتى قلنا له يا أبانصر إنه لا بأس به، إنه من أهل السنّة.

وقد كانوا يكرهون الصلاة فى المقصورة ويرونها أنها أول بدعة أحدثت فى المساجد، ويكرهون تزويق المساجد وكذا القبلة بالزخرف، وتحلية المصاحف وهذا من البدع. وفى الخبر إذا ما زخرفتُم مساجدكم وحلّيتُم مصاحفكم فالنّبار عليكم. وقد كانوا يكرهون كثرة المساجد فى المحلة الواحدة. روى أن أنس بن مالك رضى الله عنهما لما نخل البصرة جعل كلما خطا خطوتين رأى مسجدا، فقال ماهذه البدعة، لما كثرت المساجد قل المصلون، أشهد لقد كانت القبيلة بأسرها ليس فيها إلاّ مسجد واحد، وكان أهل القبائل يتبانون المسجد الواحد فى الحى من الأحياء، واختلفوا فى أيهما يُصلّى إذا اتفق مسجداً فى محلة، فمنهم من قال فى الصحابة قال وكانوا يجاوزون المساجد أقدمها، وإليه ذهب أنس بن مالك وغيره من العتق. وكان الحسن يقول يُصلّى فى أقرئها منه.

ويقال أول ما حدث من البدع أربع - الموائد والمناخل والأسنان والشبّع. وكانوا يكرهون أن تكون أوانى البيت غير الخزف، ولا يتوضأ أهل الورع فى أنية الصّفَر والنحاس. قال الجنيد قال لى سرى السقلى اجتهد أن لاتستعمل من أنية بيتك إلاّ جنسك، يعنى من الطين.

ويقال لاحتساب عليه.

ومما كرهه السلف تشييد البناء بالجص والاجر. يقال أول من طبع الطين هامن، أمره به فرعون. ويقال هو بناء الجبابرة. وكرهوا النقوش والتزيق في السقوف والأبواب، وكانوا يفضون من النظر إلى ذلك. وغاب الأحنف بن قيس غيبة فرجع وقد خضروا سقف بيته وصفروه، فلما نظر إليه خرج من منزله وحلف أن لا يدخله حتى يلقعوا ذلك منه ويعيدوه كما كان. وقال يحيى بن معاذ من أصحاب الثوري رحمه الله كنت أمشي مع الثوري في طريق فمررنا بباب منقوش مَزُوق فنظرتُ إليه فجدبني سفيان حتى جُزت، فقلت ماتكره من النظر إلى هذا، فقال إنما بنوه ليُنظر إليه، ولو كان كل مَنْ مر به لا ينظر إليه ما بنوه، فكأنه خشي أن يكون بنظره إليه معاوناً له على بنائه..

ومما أحدث الناس مما كانوا يكرهونه الثياب الرقاق مثل القصب، ورقيق بُز مصر للنساء والرجال، وهو للنساء أكره وأغلظ، وكانوا يقولون الثياب الرقاق لباس الفساق، ومَنْ رَقَّ ثوبه رَقَّ دينه، ويقولون أول النسك الزى. وقال ابن مسعود رضى الله عنه لا يشبه الزى حتى يشبه القلب القلب. وخطب بشر بن مروان وعليه ثوب رقيق فجعل رافع بن خديج رضى الله عنه يهزأ به ويقول انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق. ولما جاء عبد الله بن عامر بن ربيعة في بزته إلى أبي نذر رضى الله عنه وسأله عن الزهد وأخذ يتكلم فيه، فجعل أبو نذر يضرب به في كفه، ثم أعرض عنه ولم يكلمه، فغضب ابن عامر وكان قرشياً شريفاً وشكاه إلى ابن عمر رضى الله عنهما، فقال له أنت فعلت بنفسك تأتي أبا نذر في هذه الثياب وتسأله عن الزهد. وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وصف نساءً يكن في آخر الزمان، فقال كاسيات عاريات مائلات معيلات على رؤسهن، أمثال أسنمة البقر، يعنى المعاجر والأكوار، لا يجدن رائحة الجنة. كان ابن عباس يفسر التبرج أنه منه لبس ما رَقَّ من الثياب، وقال في قوله تعالى ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، قال كانت المرأة تلبس ثياباً قيمتها كذا وكذا، لا تُؤارى لها عورة مما لا يجوز فيه الصلاة، لأنه يصف أو يشف فمكروه لبسه، وإنما كانت ثياب السلف السنبلاني، والقطواني، وعصب اليمن، ومعافرى مصر، والقباطى مثل كسوة الكعبة، والثياب السحولية اليمانية، والكرابيس الحضرمية، وهذه كلها غلاظ كثيفة، وكانت الأثمان من خمسة دراهم إلى ثلاثين درهماً وما بين ذلك. ثم أحدث الناس الثياب الرقاق من كتان مصر وقطن

خراسان. وكان طول منثر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ونصفاً، وثمنه إلى الأربعة والخمسة. وكانت أثمان ثيابهم القميص من الخمسة إلى العشرة فيما بينهما من الثمن، ولكن قد جاء في الخبر لا تقوم الساعة حتى يصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول لا يأتى على الناس عامٌ إلا أَمَاتوا فيه سنَّةً، وأحيوا فيه بدعة، حتى تموت السنن وتحيا البدع. وإنما قيل «منكر» لأنه لا يُعرف، فإذا خفى الحق فلم يعرف وقع عليه اسم منكر. وكذلك قيل «معروف» لأنه مشهور ومألوف، فإذا فشا الباطل وكثر الجهل حتى أُفِّعَ وعُرفَ وقع عليه اسم المعروف.

وكذلك قيل يكثر الجور حتى يولد فيه من لا يعرف العدل. وكان الشعبي رحمه الله يقول يأتى على الناس زمان يصلون فيه على الهجاج. وهذا قد أتى منذ زمان، لأن الهجاج قد ابتدع أشياء أنكرها الناس عليه في زمانه هي اليوم سننٌ معروفة وأعمال مستحسنة، يترحم الناس ويفيطون من أحدثها، ويحسبون أنه مأجور عليها مشكور له سعيه فيها، إلا أنهم لا يعرفون أنه أحدثها، فهم وإن لم يفوهوا بالصلاة عليه قولاً، فإن استعمالهم لما أحدث واستحسانهم لما ابتدع ترحمٌ منهم عليه، والترحم هو الصلاة، وأيضاً فإنه ابتدع أشياء من الخير وداخله في أبواب الآخرة، ثم ظهر ولأه بعده أحدثوا أحداثاً من الجور وابتدعوا بدعا من الفسوق فصارت سنننا بعدهم، فوجب بذلك الصلاة على الهجاج إلى جنب ما أظهر بعده. فمما أحدث هذه المحامل والقباب التي خالف بها هدى السلف بالتنعم والرفاهة، وإنما كان الناس يخرجون على الرواحل والزوامل فيضحون للشمس، وينصبون في سبيل الله تعالى ويُسْعَثُونَ وَيَغْبِرُونَ ويقل أكلهم وتكثر رفاهة الإبل وتقل المشقة والحمل عليها، فيكون ذلك أثوب لهم وأزكى لحجهم وأنى إلى السلامة لإبلهم، ويوافقون به سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فأخرجهم من جميع ذلك بما أدخلهم فيه من بدعته، فصاروا يخرجون في بيوت ظليلة مع الحمل على الإبل ما لا تطيق، فيكون سبب تلفها، فيشركونه فيه ويشركهم بسنته. وابتدع أيضاً هذه الأخماس والعواشر ورؤس الأي وحمر السواد وخضره وصفره، فأدخل في المصحف ما ليس فيه من الزخرف، وكان السلف يقولون جرتوا القرآن كما أنزله الله تعالى ولا تخطلوا به غيره، فانكر العلماء ذلك عليه حتى قال أبو رزّين يأتى على الناس زمان ينشأ فيه نشء يحسبون أن ما أحدث الهجاج في المصاحف هكذا أنزله الله تعالى، يذمه بذلك، وحتى نُقِلَ الاختلاف أن بعضهم كان لا يقرأ في مصحف منقوط بحمزة لأن بعضهم كان لا يرى القراءة في مصحف منقوط، كما نُقِلَ أن بعضهم كان يرى شراء المصحف ويكره بيعه، أى وكذلك إذا لم تنقطة أنت فلا بأس أن تقرأ فيما نقطه غيرك، وقد كانوا يكرهون أخذ الأجر على تنقيط القرآن لأجل أنه مبتدع. وقال أبو بكر الهذلي سألت الحسن رحمه الله عن تنقيط المصاحف بالأجر، قال وما تنقيطها، قلت يُعربون

الكلم بالعربية، فقال أما إعراب القرآن فلا بأس به. وقال خالد الحذاء بخلت على ابن سيرين فرايته يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط. وقال فراس بن يحيى وجدت ورقا منقوطا بالنحو في سجن الحجاج فعجبت منه، وكان أول نقط رأيت فاتيت به الشعبي فأنخبرته، فقال لي أقرأ عليه ولا تنقطه أنت بيديك. ومنها أنه جمع من القراء ثلاثين رجلا فكانوا يعدون حروف المصحف يعدون كلمه شهرا، ولوراهم عمر أو عثمان أو علي يصنعون هذا بالقرآن أى يعدون حروفه وكلمه لأوجع رؤسهم ضربا. وهذا الذي كرهته الصحابة ووصفوا به قراء آخر الزمان أنهم يحفظون حروفه ويضيعون حدوده. وكان الحجاج أقرأ القراء وأحفظهم لحروف القرآن. كان يختم القرآن في كل ثلاث، وكان أضحى الناس لحدوده. ومنها أنه ابتدع إخراج الحصى والرمل من المساجد وفرشها بالبورى. كما روى أن قتادة سجد فدخلت في عينه قصبه وكان ضريراً فقال لعن الله الحجاج، ابتدع هذه البورى يؤذى بها المسلمين. وقد كانوا يستحبون السجود على الأرض والتراب تواضعا لله تعالى وتخشعاً وذلاً. إلى غير ذلك من بدعه التى لم نقصد تعديدها عليه ولا جمعها، فهى اليوم سنن معروفة وشرائع مألوفة مع ما أحدث غيره مما يكثر عدده، منكرٌ كله عند من عرف المعروف من سيرة المتقدمين وشمائل الصالحين .

وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه يظهر المنكر والبدع حتى إذا غير منها شئ قيله غيرت السنة. وقال فى آخر حديثه أكيسهم فى ذلك الزمان الذى يرؤغ بدينه روغان الثعالب. وقد كان أنس بن مالك رضى الله عنه فى سنة ثمانين وأيام الحجاج يقول ما أعرف اليوم شياً كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قد غير إلا شهادة أن لا إله إلا الله، قيل فالصلاة يا أبا حمزة، قال أوليس قد أحدثوا فى الصلاة ما علمتم، يعنى تأخيرها والتثويب قبلها وتعين السلام حتى أنهم يضاهون به الإقامة فجعلوه كالسنة، وكان يقول للقراء إذا دخلوا عليه مثل يزيد الرقاشى وزيد النميرى وفرقد السبخى ما أشبهكم بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيفرحون، فيقول نعم رؤسكم ولحاكم، فهذا كما قال المجنون:

أما الخيام فإنها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نساها

وعن جماعة من الصحابة لو نُشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورؤكم لما عرفوا شياً مما أنتم عليه الآن إلا الصلاة فى جماعة، وفى لفظ آخر إلا أنكم تصلون جميعا. وكان الحسن يقول صحبت طوائف لو رأيتموهم لقلتكم مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق. وقال أبو حازم أدركت القراء وهم القراء حقا، ولو كان حامل القرآن فى مائة رجل لعرف بشدة تواضعه وحسن سمته وخشوعه وقد قره القرآن فى سمته، وقد خضعه القرآن وأخشعه، فأما هؤلاء فوالله ما هم بالقراء ولكنهم الجراء. وقد قال بعضهم كنا نشهد الجنائز فلا نعرف

صاحب المصيبة ولا ندرى من نعزى من شدة حزن القوم. قال وكان أحدهم يبقى بعد شهود الجنائز ثلاثا لا ينتفع به. وكان الفضيل رحمه الله يحذر من قرأ زمانه فقال إياك وصحبة هؤلاء القراء فإنك إن خالفتهم فى شيء كفروك. وقال سفيان الثوري رحمه الله ما شيء أحب إلى من صحبة فتى، ولا شيء أبغض إلى من صحبة قارئ. وكان كثيرا يقول من لم يحسن يتغنى لم يحسن يتقرى. وكان بشر بن الحارث يقول لأن أصحاب فتى أحب إلى من أن أصحاب قارئنا، إياك وصحبة القراء يذمون غير مذموم، وإن تركت الصلاة معهم فى جماعة تشاهدوا عليك. كل ذلك لأنهم يجاوزون الحد فى الشيء ويسرعون الإنكار إلى كل شيء، فغلبة الجهل عليهم وقلة مجالستهم للعلماء، ومماناتهم للعلم، وأنهم موصوفون بدقائق الرياء والتصنع للعادة فينكرون غير منكر، ويتعصبون بالبغضة والهجر فى الشيء اليسير الذى قد يفتقر مثله، وهم غير موصوفين بمحاسن الأخلاق ولا موسومين بالبشاشة والانطلاق، إذ فيهم كزازة وتغليظ على الناس، وكزازة وحقق على الأغنياء، حتى كأنهم ياكلون أرزاقهم، وكأنهم يعملون العبادة لهم، وفيهم كثرة مقت لأهل البشر والطلاقة، فلذلك قال بعضهم الشريف إذا تقرى تواضع، والوضيع إن تقرى تكبر. وقال آخر السافلة إذا تقرى أكثر الأمر بالمعروف واعترض على جيرانه فى كل شيء، يعنى أكثر الأمر بالمعروف ليُعرف به، فمن أجل ذلك رفضهم العلماء ونمهم الحكماء، لأن العلم يبسط ويوسع وتكون معه الأخلاق الحسنة والآداب والروايات الواسعة، والعالم يضع الأشياء فى مواضعها من الناس ولا يجاوز بها ولا بهم المقادير، ويستخرج لهم المعانير، ومن صفة العلماء الانقباض فى بسط خلق. وقد قال الإمام الشافعى رحمه الله الانقباض على الناس مكسبة لعداوتهم، فكن بين المتقبض والمتبسط. وفى الخبر إنكم لا تسعون الناس بأموالكم فليسعهم منكم وجه طلق وخلق حسن، وفى لفظ آخر وبشر وبشاشة، وهذا كله معدوم من القراء ولا يعرفونه. وقد جعل الله تعالى لكل شيء قدرا فمن تعدى حد الشيء فقد أفسده.

وقال بعض السلف قليل التواضع يكفى من كثير العمل، وقليل الورع يكفى من كثير العلم. ومن أخلاق السلف مما تهاون به الخلف أنهم كانوا يعنون من النفاق أن يتكلم الرجل فيمن يكلمه، أو يكلم من تكلم فيه، لأنهم كانوا إذا كلموا أحدا أو سلموا عليه سلمت له قلوبهم ولم يتكلموا فيه، وإذا تكلموا فى أحد لبذت أو ظهور فسقه لم يكلموه، وكانوا إذا مدحوا أحدا بقول لم يذموا بفعل، وإذا ذموا واحدا بفعل لم يمدحوه بقول، لأن فى ذلك لسانين، واختلاف وجهين، واختلاف سر وعلانية. وكانوا يقولون معنى سلام عليك إذا لقيته أى سلمت منى أن اغتابك وأذمك، فكان اختلاف هذا عندهم من أبواب النفاق. وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. وفى حديث آخر من كان ذا لسانين فى الدنيا جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار. وكان بعضهم يقول ما ذكر عندى إنسان قط

إلا مثلته جالسا فقلت في غيبته بما يحب أن يسمع. وقال آخر ما ذُكر عندي رجل إلا تصورت في نفسي مثاله، فكل ما أحب أن يقال لي قلت له. فهذه كانت صفات المسلمين الذين يسلم الناس على أيديهم وقلوبهم، كان أحدهم إذا ذُكر عنده غيره بسوء وقف وتفكر في شأن نفسه، فإن كان فيه مثل ذلك السوء قَطَعَهُ الحياء عن الكلام في أخيه فسكت، وإن لم يكن ذلك فيه حمد الله عز وجل ورحم أخاه، فشفله الشكر لمولاه إذ عافاه، فهذه كانت سيرة السلف.

ويقال في بعض كتب الله تعالى - عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح، ولن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب. وأعجب من ذلك من أحب نفسه على اليقين وأبغض الناس على الشك. ومن طريقة السلف مما كانوا يشدّدون فيه حب المدح وطلب الحمد، حتى قال بعضهم من أحب المدح وكرهه الذم فهو منافق. وقال عمر رضى الله عنه لرجل من سيّد قومك، قال أنا، قال لو كنت كذلك لم تقل. وكتب محمد بن كعب فانتسب فقال القرطبي، قيل له الأنصاري، قال أكره أن أمن على الله عز وجل بما لم أفعل. وقال الثوري رضى الله عنه إذا قيل لك بشس الرجل أنت فغضبت فانت بشس الرجل. وقال آخر لا يزال فيك خير ما لم تر أن فيك خيراً. وسئل بعض العلماء ماعلامة النفاق، قال الذى إذا مدح بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه. وكان سفيان رضى الله عنه يقول إذا رأيت الرجل يحب أن يحبه الناس كلهم، ويكره أن يذكره أحد بسوء، فاعلم أنه منافق، فهذا داخل في وصف الله تعالى المنافقين بقوله تعالى ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم، فينبغي لمن أمن في أهل السنة أن يخاف في أهل البدع، وهذا مما دخل على القراء الذى نهمهم العلماء مداخل الليل في النهار. ولعل مغروراً جاهلاً يتأول الحديث الذى جاء إذا مدح المؤمن رباً الإيمان في قلبه على غير تأويله، ويحمّله على غير محمله، فإنما قال رباً بالإيمان ولم يقل رباً المؤمن، قرّبوا الإيمان زيادته، وزيادته بالخوف والإشفاق من المكرب والاستدراج، وفيه طريق للعارفين بأن يعلو الإيمان العلى إلى المؤمن الأعلى، فيفرح بذلك لمولاه ويضيفه إلى سيده الذى به تولاه، فيردّ الصنعة إلى صانعها، ويشهد في الفطرة فاطرها، فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفا للفاطر، لا ينظر إلى نفسه ولا يعجب بوصفه. وهذه طرق قد درّست وانتقطع سلاكها إلا من رحم ربك.

باب تفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم والتحذير من الزلل فيه وبيان ما ذكرناه

إعلم أن كل علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك إذا رغب فيه وحرص عليه، لأنه نتيجة الذهن وثمرة العقل، إلا علم الإيمان واليقين فإنه لا يتأتى ظهور مشاهدته والكلام في حقائقه إلا للمؤمن موقن من قبل أن ذلك تقرير مزيد الإيمان وحقيقة العلم

والإيقان، فهو آيات الله تعالى وعهده عن مكاشفة قدرته وعظمته، وآيات الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعهده لا ينال الظالمين، وعظمته وقدرته لا تكون شهادة للزائغين ولا وجداً للمبطلين، إذ في ذلك توهين لآيات الله وحججه، وانتقاص لبراهينه وقدرته، وبخول الشك في اليقين الذي هو محجة المخلصين، والذين هم بقية الله تعالى من عباده، واشتباه الباطل بالحق الذي هو وصف أهل الصدق الذين هم أدلته عليه من أهل وداذه، وهذا من أدل دليل على فضل علم المعرفة على غيره، قال الله عز وجل أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل، وقال الله تعالى بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم، وقال سبحانه وتعالى إن في ذلك لآيات للمتوسمين، وقال قد بينا الآيات لقوم يوقنون، وقال عز وجل ولأنبيئنا لقوم يعلمون، فهؤلاء العلماء بالله تعالى الناطقون عن الله عز وجل، جعل لهم أنصباً منه ومكاناً عنده، ولا يكون ذلك لمن ليس أهلاً له ولا حقيقاً به، لأنهم آيات الله تعالى وبيئاته، وشهوده وبيئاته، كاشفو طريقه ومظهرو بيانه، إذ يقول تعالى ثم إن علينا بيانه، ثم قال تعالى خلق الإنسان علمه البيان، بعد قوله وكان حقاً علينا نصر المؤمنين، مع قوله تعالى وكانوا أحق بها وأهلها، فنصروه بما نصرهم به، وتحققوا بما حققهم منه، وشهدوا له ماشهد لهم عنه، فكانوا للمتقين إماماً، وإلى الهداية أعلاماً.

وقال بعض أهل المعرفة من لم تكن له مشاهدة من هذا العلم لم يعرف من شرك أو نفاق، لأنه عار من علم اليقين، ومن عار من اليقين وجد فيه دقائق الشك. وقال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر من كان فيه خصصتان لم يفتح له من هذا العلم شيء: بدعة أو كبير. وقال طائفة من أهله من كان محباً للعالم أو مصرأً على هوى لم يتحقق به. وقال أبو محمد سهل أقل عقوبة من أنكر هذا العلم أن لا يبرزق منه شيء أبداً. واتفقوا على أنه علم الصديقين. وأن من كان له منه نصيب فهو من المقربين وينال درجة أصحاب اليمين.

واعلم أن علم التوحيد ومعرفة الصفات مبان لسائر العلوم، فالاختلاف في سائر العلوم الظاهرة رحمة، والاختلاف في علم التوحيد ضلال، والخطأ في علم الظاهر مغفور، وربما كانت حسنة إذا اجتهد، والخطأ في علم التوحيد وشهادة اليقين كفر من قبل أن العباد لم يكلفوا حقيقة العلم عند الله تعالى في طلب العلم الظاهر، وعليهم واجب طلب موافقة الحقيقة عند الله في التوحيد، ومن ابتدع شيئاً ردت عليه بدعته وكان مسئولاً عنه، ولم يكن حجة لله تعالى على عباده ولا غيثاً نافعا في بلاده، بل كان موصوفاً بالدنيا وفيها من الراغبين، ولم يكن دليلاً على الله عز وجل ولا من دعاة الدين والإماما للمتقين.

وقد جاء في الخبر العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا

فاحذروهم على دينكم. والخبر المشهور من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد. وقد روينا عن عيسى عليه السلام وقيل له من أشد الناس فتنة، فقال زلة عالم إذا زلَّ زلٌّ بزلته عالم. وقد روينا معناه عن نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم مما أخاف على أمتي زلة عالم وجدال مناقق في القرآن. وكان بعض السلف يقول مَثَلُ الْعَالِمِ إِذَا زَلَّ مَثَلُ سَفِينَةٍ إِذَا غَرَقَتْ غَرَقَ مَعَهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، ومثل كسوف الشمس يصيح الناس يا غافلون الصلاة وإنما عند العامة آية يُفْرَعُ مِنْهَا.

ويروي في خبر غريب من غش أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، قيل يا رسول الله وما غش أمتك، قال أن يبتدع بدعة في الإسلام يحمل الناس عليها. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول ويل للعالم من الاتباع، وويل للاتباع من العالم. يزلُّ العالم بزلة فيتبعه عليها فتأم من الناس وتبلغ الآفاق، وما أعلم أحداً أعظم جرماً ممن ابتدع في دين الله عز وجل، فنطق في كتاب الله تعالى وفي علم المعرفة بما لم يأت به الله، ثم لم يعبأ بسُنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو حجة الله تعالى على جميع خلقه وطريق مُقَرَّبِيهِ مِنْ عِبَادِهِ، فأضلَّ بذلك عباد الله عز وجل، فإنَّ مَثَلُ مَنْ ابْتَدَعَ فِي الدِّينِ وَاتَّخَذَ وَابِجَةً دُونَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَبَيَّنَّ طَرِيقَ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى جَنْبٍ مِنْ يَكَاثِرُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَارْتَكَبَ فِيهَا شَهَوَاتِ الْأَهْوَاءِ، كَمَثَلِ مَنْ اجْتَرَحَ الْمِظَالِمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْدِمَاءِ، إِلَى جَنْبٍ مِنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِكَسْبِ الذُّنُوبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ. ومثله أيضاً مثل من أذنب وجحد ذنبه واحتج لنفسه إلى من أذنب وأعترف بذنبه واعتذر من نفسه، فهو أقرب للعفو وأرجى للرحمة من الآخر، كذلك من اعتلَّ بالتقصير والتفريط في العمل ولم ينصح لنفسه، إلا أنه أظهر حقيقة العلم ونصح لله تعالى ورسوله ببيان كتابه وذكَّرَ سُنَّتَهُ، أقرب إلى حسن الإخلاص وأولى بالتدارك في العافية ممن شرع في دين الله تعالى وابتدع في الأمة ما يخالف به الكتاب والسنة، هكذا كأنه قد قلب ملءً وبدلَ شريعة، فهذا يؤلِّد النفاق في قلبه حتى يُخْتَمَ لَهُ بِهِ. ومَثَلُ مَنْ ابْتَدَعَ فِي الْمَلَّةِ مَخَالَفاً لِلسُّنَّةِ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَى نَفْسِهِ بِالذُّنُوبِ، مَثَلُ مَنْ عَصَى الْمَلِكَ فِي قَلْبِ دَوْلَتِهِ وَتَظَاهَرَ عَلَيْهِ فِي مَلِكِهِ بِالْإِزَالَةِ، إِلَى جَنْبٍ مِنْ عَصَى أَمْرَهُ وَقَصَرَ فِي حَقِّهِ مِنَ الرَّعِيَةِ.

وقد قال بعض الحكماء ثلاث لا يحسن من الملك أن يفرها، مَنْ قَلْبَ دَوْلَةٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ، أَوْ عَمَلَ فِيهَا يَوْهِنُ الْمَلِكَ، أَوْ أَفْسَدَ حُرْمَةً مِنْ حُرْمِهِ. وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن لله تعالى ملكاً ينادي كل يوم مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ تَنْلُهُ شَفَاعَتُهُ. وقال على كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ الْهَوَى شَرِيكَ الْعَمَى. وقال الله تعالى ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أظلم ممن افتترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم، ثم قال تعالى أَوْحَى إِلَيَّ وَلَمْ يُوحِ إِلَيْهِ شَيْءٌ، ومن قال سأُنزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فسوى بين الكذاب في الفرية على الله تعالى وبين المتشبه

المضاهى للربوبية. وكذلك من أعظم المنكر بعد هذا إنكار الحق من أهله ورده عليهم بالتكذيب، وقد سوى الله تعالى أيضا بين التكذيب بالحق وبين ابتداء الكذب على الخالق في قوله عز وجل ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو كذب بالحق لما جاءه، وقال تعالى في مثله فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق، فقد سوى بينهما كما سوى عز وجل بين الصادق بالصدق والمصدق به، فقال تعالى والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العالم والمتعلم شريكان في العلم. وقال عيسى عليه السلام بمعناه المستمع شريك القائل. ولكن الله تعالى قد جعل هذه الطائفة من أهل العلم بالله تعالى ترد على جميع الطوائف من الشاطحين والمبتدعين، أهل الجهالة بالدين والحيدة عن سبيل المؤمنين، بما أراهم الله تعالى من علم اليقين، وبما شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والتعديل في قوله: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتحويل الجاهلين. فالغالون هم الشاطحون لأنهم قد جاوزوا العلم ومحو الرسم فأسقطوا الحكم، والمبطلون هم المدعون المبتدعون لأنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، واقتروا بالدعوى وابتدعوا بالرأى والهوى، والجاهلون هم المنكرون لغرائب العلم المفترون لما عرفوا من ظاهر العقل. كما روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم إن من العلم كهينة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله عز وجل، فإذا أنطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى، ولا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه. وكل من تأول السنن بالرأى والمعقول أو نطق بمالم يسبق إليه السلف من القول أو بمعناه فهو متكلف مبطل، فأهل العلم بالله تعالى يربون علوم المعقول بعلم اليقين، وعلم الرأى بعلم السنة، ويثبتون أهل الآثار، ويؤيدون نقلة الأخبار بما يفصلون من أخبارهم، ويفسرون من حديثهم، مما لم يجعل للنقطة طريق إليه، ولم يهتد الرواة إلى كشف منه، بما أشهدهم الله عز وجل واستودعهم ونور به قلوبهم ونطقهم، فهم ينطقون عن الله سبحانه وتعالى فيما يخبرون عنه، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون. وقد قال بعض العلماء ماتكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء، وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف. وقال آخر الحق ثقيل من جاوزه ظلم، ومن قصر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى. وقال على رضى الله عنه عليكم بالنمط الأوسط الذى يرجع إليه العالى ويرتفع عنه القالى. وهكذا سيرة السلف، أنه لا يستمع إلى مبتدع لأنه منكر، ولا يرد عليه بالجدال والنظر لأنه بدعة، ولكن يخبر بالسنن ويحجج بالأثر. فإن قيل فهو أخوك في الله عز وجل ووجب عليك موالاته وإن لم يرجع وأنكر، نقض بإنكاره وعرف ببدعته وحقت عداوته وهجر في الله تعالى. وهذا طريق لا يسلكه في وقتنا هذا إلا من عرف فضله وطريقة السلف فيه.

وحدثت عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة فرجعوا إليه محسورين، فقال

ماشائكم قالوا مارأينا مثل هؤلاء القوم، مانصيب منهم شياً، قد أتعبونا. فيقول إنكم لاتقدرون عليهم، قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم، ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم. فلما جاء التابعون بث جنوده فيهم فرجعوا إليه منكسرين منكوسين، فقال ماشائكم، قالوا مارأينا أعجب من هؤلاء القوم، نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الخطايا، فإذا كان من آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فتبدل سيئاتهم حسنات. فقال إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئاً لصحة توحيدهم واتباعهم سنة نبيهم، ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تُقر أعينكم بهم، تلعبون بهم لعباً وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم، إن استغفروا لم يُغفر لهم، ولا يتوبون فتبدل حسناتهم سيئات. قال فجاء قوم بعد القرن الأول فبعث فيهم الأمواء، وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون منها ولا يتوبون إلى الله، قال فتسلطت عليهم الأعداء وقادتهم أين شاؤا.

وقد قال ابن عباس رضى الله عنه إن للضلالة حلوة فى قلوب أهلها. وقد قال الله تعالى اتخذوا دينهم لعباً ولهوا. وقال تعالى أقمن كان على بيته من ربه ويتلوه شاهد منه. فالعلم رحمة الله هو الذى كان عليه السلف المقتضى آثارهم، والخلف التابع المقتضى بهديهم، وهم الصحابة أهل السكينة والرضا، ثم التابعون لهم بإحسان من أهل الزهد والنهى. والعالم هو الذى يدعو الناس إلى مثل حاله حتى يكونوا مثله، فإذا نظروا إليه زهدوا فى الدنيا لزهده فيها، كما كان نون رحمة الله يقول: جالس من يكلمك علمه، لامن يكلمك لسانه. وقد قال الحسن رضى الله عنه قبله: عظم الناس بفعلك ولا تعظم بقولك. وقال سهل رحمة الله: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وقد روينا معنى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قيل له أى جلسائنا خير، فقال من نكرمك بالله تعالى رؤيته، وزاد فى علمكم منطقته، وذكركم بالآخرة عمله، فأما الذى يطلب دنياهم حتى يكون مثلهم فإذا رأوه اغتبطوا بحالهم، فهذا شر منهم، لأنه يدعو إلى نفسه لا إلى مولاة، ولأنه طامع فيهم وهم زاهدون فيه، فالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء هم الورعون فى دين الله عز وجل، الزاهدون فى فضول الدنيا، الناطقون بعلم اليقين والقدرة، لا علم الرأى والهوى، الصامتون عن الشبهات والآراء، لا يختلف هذا إلى يوم القيامة عند العلماء الشهداء على الله تعالى برأى قائل ولا يقول مُبطل جاهل، كما روى عن عبد الله بن عمر وعن النبى صلى الله عليه وسلم صلح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل. وقال يوسف بن أسباط إن الأبدال إنما انقطعوا فى أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور، لأنهم لا يطبقون النظر إلى علماء هذا الوقت، ولا يصبرون على الاستماع لكلامهم، لأنهم عندهم جهال بالله تعالى، وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء، فقد صاروا من أهل الجهل وأهل الجهل بالجهل، على الوصف الذى قال سهل رحمة الله إن من أعظم المعاصى

الجهل بالجهل. والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة أيسر عندهم لأنهم لا يعدمون ذلك، لأن العامة لا يموهون في الدين ولا يفرغون المؤمنين ولا يدعون أنهم علماء، لأنهم يتعلمون وبالجهل معترفون، فهم إلى الرحمة أقرب، ومن المقت أبعد. وكان أبو محمد أيضا يقول تسوية القلب بالجهل بالعلم أشد من التسوية بالمعاصي، لأن الجاهل بالعلم تارك ومدع، والمعاصي بالفعل مقر بالعلم. ويقول أيضا لأن العلم نواء به تصلح الأنواء، فهو يزيل فساد الأعمال بالتدارك، والجهل يفسد الأعمال بعد صلاحها، فهو يزيل الحسنات فيجعلها سيئات، فكم بين ما يصلح الفاسد وبين ما يفسد الصالحات. وقد قال الله تعالى إن الله لأصلح عمل المفسدين، وقال تعالى إنا لانضيق أجر المصلحين، فهذا من أدل دليل على فضل العالم المقصر على العابد المجتهد.

واعلم أن العبد إذا باين الناس في كل شيء من أحوالهم انفرد عن جمعهم ولم يآلف أحدا منهم، وإن باينهم في أكثر أحوالهم اعتزل عن الأكثر منهم، فإن فارقهم في بعض الأحوال ووافقهم في بعض حاله خالط أهل الخير وفارق أهل الشر.

باب تفضيل الأخبار وبيان طريق الإرشاد وذكر الرخصة والسعة في النقل والرواية

جميع ما ذكرناه في هذا الكتاب من الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عن الصحابة وعن التابعين وتابعيهم، رسمناه حفظاً وسُقناه على المعنى، إلا يسيراً اتفق وجوده في أيدينا، وقرب تناوله منا من أخبار فيها طول، فإننا نقلناها من مواضعها، وما بعد علينا فلم نفقه ولم نشغل هممتنا به، فما كان فيه من صواب وبيان وتثبت فمن الله تعالى بحسن توفيقه وقوة تأييده، وما كان فيه من خطأ وعجلة وهوى فمننا بالسهو والغفلة، ومن عمل الشيطان بالعجلة والنسيان. وكذلك روينا عن ابن مسعود رضی الله عنه في قضيته التي قضأها برأيه، وقولنا لرأيه تبع، وروينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم البيان والتثبت من الله عز وجل والعجلة والنسيان من الشيطان، يعني بواسطته وبِقَلَّة التوفيق، ولم أعتبر ألفاظ الأخبار في أكثره، ولم آل عن سياق المعنى في كله، إذ ليس تحرير الألفاظ عندي واجباً إذا أتيت بالمعنى بعد أن تكون عالماً بتصريف الكلام وبتفاوت وجوه المعاني، مجتنباً لما يكون به تحريف أو إحالة بين اللفظين. وقد رخص في سوق الحديث على المعنى بون سياقه على اللفظ جماعة من الصحابة، منهم علي وابن عباس وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وأبو هريرة، ثم جماعة من التابعين يكثر عددهم، منهم إمام الأئمة الحسن البصري، ثم الشعبي وعمرو بن دينار وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة رضی الله عنهم، نقلنا ذلك عنهم في كتب سيرهم بأخبار مختلفة الألفاظ. وقال ابن سيرين كنت أسمع الحديث من عشرة، المعنى واحد والألفاظ مختلفة، ولذلك اختلف الصحابة في رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنهم من يرويه تاماً، ومنهم من يجيء به

مختصراً، ومنهم من يرويه على المعنى، وبعضهم يغير بين اللفظين ويراه واسعا إذا لم يخالف المعنى، وكلهم لا يعتمد الكذب، وجميعهم يقصد الصدق، وكانوا يقولون إنما الكذب على من تعمده.

وقد روينا عن عمر أن بن مسلم، قال قال رجل للحسن يا أبا سعيد، إنك تحدث بالحديث، أنت أحسن له سياقاً وأجود تحبيراً وأفصح به لساناً منا إذا حدثنا به، فقال إذا أصبت المعنى فلا بأس بذلك. وقد قال النضر بن شميل كان هشام لحناً فكسوت لكم حديثه كسوة حسنة، يعنى بالإعراب، وكان النضر نحوياً ونحن قائلون في جميع مارويناه أو كما قيل ونحوه وشبهه ويمعناه، كذلك قال ابن مسعود في حديثه. وكان سليمان التيمي يقول في كل ما يحدث به. وقد كان سفيان رحمه الله يقول إذا رأيت الرجل يشدد في ألفاظ الحديث في المجلس فاعلم أنه يقول إعرفوني. قال وجعل رجل يسأل يحيى بن سعيد القطان عن حرف في الحديث على لفظه، فقال له يحيى يا هذا ليس في أيدينا أجل من كتاب الله تعالى، وقد رخص بالقراءة فيه بالكلمة على سبعة أحرف، فلا تشدد. وفي بعض مارويناه مراسيل ومقاطع، ومنها ما في سنده مقال، وربما كان المقطوع والمرسل أصح من بعض المسند إذ رواه الأئمة، وجاز لنا رسم ذلك لمعان أحدها أنا لسنا على يقين من باطلها، والثاني أن معنا حجة بذلك وهو روايتنا له، وأنا قد سمعنا فإن أخطأنا الحقيقة عند الله تعالى فذلك ساقط عنا كما قال الأسباط، وما شهدنا إلا بما علمنا، وما كنا للغيب حافظين، في قولهم إن ابنك سرق فأخطأ الحقيقة عند الله تعالى، إلا أنهم كانوا معذورين لوجود الدليل وهو شهادتهم للصاع مستخرج من رَحْل أخيه، والثالث أن الأخبار الضعاف غير مخالفة الكتاب والسنة لا يلزمنا ردّها بل فيها ما يدل عليها، والرابع أننا متعبدون بحسن الظن، منهيون عن كثير من الظن، مذمومون بظن السوء، والخامس أنه لا يتوصل إلى حقيقة ذلك إلا من طريق المعاينة ولا سبيل إليها، فاضطررنا إلى التقليد والتصديق بحسن الظن بالنقل مع ماتسكن إليه قلوبنا وتلين له ألسنتنا ونرى أنه حق كما جاء في الخبر، وأيضا فإنه ينبغي أن نعتقد في سلفنا المؤمنين أنهم خير منا، ثم نحن لانكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على التابعين، فكيف نظن بهم أن يكذبوا وهم فوقنا، على أنه قد جاءت أحاديث ضعاف بأسانيد صحاح، فكذلك يصلح أن نورد أحاديث صحاحا بسند ضعيف، لاحتمال أن يكون قد روى من وجه صحيح إذ لم نُحط بجملته العلم، أو لأن بعض من يُضعفه أهل الحديث يقويه بعضهم، وبعض من يجرحه ويذمه أحد يعدله ويمدحه آخر، فصار مختلفاً فيه، فلم يرد حديثه بقول واحد دون من فوقه أو مثله، أو لأن بعض ما يُضعف به رواية

الحديث وتعلل به أحاديثهم لا يكون تعليلاً ولا جرحاً عند الفقهاء ولا عند العلماء بالله تعالى، مثل أن يكون الراوى مجهولاً لإيثاره الضمول وقد نُدب إليه، أو قلته الاتباع له إذ لم يقم لهم الأثر عنه، أو ينفرد بلفظ أو حديث حفظه أو خصَّ به بون غيره من الثقات، أو يكون غير سائق للحديث على لفظه، أو لا يكون معتمياً بحفظه ومرسه. وقد يتكلم بعض الحفاظ بالإقدام والجراة فيجاوز الحد في الجرح ويتعدى في اللفظ، ويكون المتكلم فيه أفضل منه وعند العلماء بالله أعلى درجة، فيعود الجرح على الجرح، أو يكون رأى عليه لباساً أو سمع منه كلاماً يجرحه عند الفقهاء، علته به بعض القراء من الرواة.

وبعض من يضعفه أصحاب الحديث هو من علماء الآخرة ومن أهل المعرفة بالله تعالى، وله في الرواية والحديث مذاهب غير طريقة بعض أصحاب الحديث فيعمل في روايته بمذهبه، فلا يكون أصحاب الحديث حجة عليه إلا كان هو حجة عليهم، إذ ليس هو عند أصحابه من العلماء بون أصحاب الحديث ممن ضعفه. وقال بعض العلماء: الحديث وإن كان شهادة فقد وسع فيه بحسن الظن كما جوز فيه قبول شهادة واحد، أى للضرورة، كشهادة القابلة ونحوها. وروينا معناه عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه. والحديث إذا لم ينافه كتاب أو سنة وإن لم يشهدا له، إن لم يخرج تأويله عن إجماع الأمة فإنه يوجب القبول. والحديث الضعيف عندي أثر من الرأى والقياس، وهذا مذهب الإمام أبى عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه. والحديث إذا تداوله عصران أو رواه القرون الثلاثة أو دار في العصر الواحد فلم ينكره علماءه، وكان مشهوراً لا ينكره الطبقة من المسلمين، احتمل وقوع به حجة وإن كان فى سنده قول، إلا ماخالف الكتاب والسنة الصحيحة أو إجماع الأمة أو ظهر كذب ناقله بشهادة الصادقين من الأئمة.

وقال وكيع بن الجراح ما ينبغي لأحد أن يقول هذا الحديث باطل، لأن الحديث أكثر من ذلك. وقال أبو داود قال أبو زرعة الرازى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عشرين ألف عين تطرف، كل واحد قد روى عنه ولو حديث، ولو كلمة أو رواية، فحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يحصى. وذكر رجل عند الزهرى حديثاً فقال ماسمعنا بهذا، فقال أكل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت، قال لا، قال فثلاثه، قال لا، قال فنصفه، فسكت. وقال عد هذا من النصف الذى لم تسمعه. وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه كان يزيد بن هرون يكتب عن الرجل وهو يعلم أنه ضعيف، وكان له نكاه وعلم بالحديث. وقال إسحق بن راهويه قيل للإمام أحمد بن حنبل هذه الفوائد التى فيها المناكير ترى أن تكتب الجيد منها، فقال المنكر أبداً منكر. قيل له فالضعفاء، قال قد يحتاج إليهم فى وقت، كانه لم ير بالكتابة

عنهم بأسا. وقال أبو بكر المروزي عنه إن الحديث عن الضعفاء قد يحتاج إليه، ومما يدل على مذهبه في التوسعة، أنه أخرج حديثه كله في المسند المأثور عنه، الذي رويناه عن أشياخنا عن ابنه عبد الله عنه، ولم يعتبر الصحيح منه. وفيه أحاديث كثيرة يعلم الثقات أنها ضعيفة وهو أعلم بضعفها منهم، ثم أدخلها في مسنده لأنه أراد تخريج المسند ولم يقصد تصحيح السند، فاستجاز رواياتها كما سمعها. وقد كان قَطَع أن يحدث الناس في سنة ثمان وعشرين وتوفى في سنة إحدى وأربعين، فلم يسمع أحد منه في هذه المدة إلا ابنه عبد الله وابن منيع جزأ واحداً بشفاة جده أحمد بن منيع. وحدثونا عنه أئني الإمام أحمد قال، كان عبد الرحمن ينكر الحديث ثم يخرج إلينا بعد وقت فيقول هو صحيح قد وجدته. قال وأما وكيع فلم ينكر، ولكن يقول إذا سئل عنه لا أحفظه.

هذا كان مذهب الورعين من السلف، وقد كان بعضهم يقول كنا نترك مجالسة من كان كلامه في التضعيف. وقال بعضهم في تضعيف الرواة إن خلصت نيتك، يعني إن أردت الله عز وجل والدين بذلك، لم يكن لك ولا عليك، فهذه الفصول الذي ذكرناها هي أصول في معرفة الحديث، وهو علم لأهله وطريق هم سالكوه، ثم حدث قوم لم يكن لهم علم يختصون به، ولا حال من علم يوصفون به، ولا شغل من عبادة تقطعهم، فجعلوا لنفوسهم علماً تشاغلو به وشغلوا من استمع إليهم فصنّفوا كتباً، وأخنوا يتكلمون في نَقَلَة الأخبار بالتعليل وتَبَع العثار، فطرقوا لأهل البدع إلى رد السنن وإيثار الرأي والمعقول عليها لما يرون من طعنهم فيها، واغتبطوا بالقياس والنظر لما وجدوا من زهدهم في السنّة والخبر، سيما في زمانك هذا.

والأحاديث في الترغيب في الآخرة، والتزهيد في الدنيا، والترهيب لوعيد الله تعالى، وفي فضائل الأعمال وتفضيل الأصحاب متقبلة محتملة على كل حال، مقاطيعها ومراسيلها لا تُعَارَض ولا تُرَدَّد، وكذلك في أهوال القيامة ووصف زلازلها وعظائمها لا تُنكر بعقل، بل تُتَقَبَل بالتصديق والتسليم. كذلك كان السلف يفعلون، لأن العلم قد دل على ذلك والأصول قد وردت به، وقد رويناه من بلغه عن الله فضيلة، أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمل به أعطاه الله ثواب ذلك، وإن لم يكن ما قيل، والخبر الآخر: من روى عنى حقاً فأنا أقوله وإن لم أكن قلته. ومن روى عنى باطلاً فإني لا أقول بالباطل. وفي كل ما رُسِمناه من هذا الكتاب نقول الله أعلم وأحكم وعلمه المقدم، وعنده حقائق العلوم، وإليه ترجع الأمور، وما شاء الله كان، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهذا آخر كتاب العلم وتفضيل العلوم ووصف طريق السلف ونشر ما أحدث بعدهم الخلف.